محاضرات

تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف

الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية سابقا

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

١٣٤٤ — ١٩٢٦

مطبعة مصطفى محمد
صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح فى بلاد الفرس بدء القادسية

٢ ﴿ عمر بن الخطاب ﴾

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائما بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فاذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم وكان يري عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرنى عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رقيقا ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه و ياأبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى الشيء أرانى الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه لاتذكر ياأبا محمد مما قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال ياأبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر علىّ ذاك ياأبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله ياأبا عبد الله لاتذكر مما ذكرت لك شيئاً

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٢ ﴿[illegible]﴾

[illegible]

[illegible]

قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وماأدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأى دعا بعثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الي المسلمين أما بعد) - ثم أغمي عليه فكتب عثمان - (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يري فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في بدء أمره

مقت
كثي
ومق
فآ
الإ
للمس
وه
أن
يخر
من
وح
منهل
وأي
دلي
الس
في
يشي
وإن
وكث

مقتنعاً بصحة الرسالة فحارب الاسلام حرباً شديدة حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الاوطان فكان ذلك مما دعاه الى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الارقم بن أبي الارقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب الى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الاسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب اخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً مايشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل في الاسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الامر وكان لابي بكر بمنزلة الوزير الاول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وان لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الاناة في الامور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق) والجمل الانف هو الجمل الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ماعنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للامة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت و يتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فانه يجب عليه أن يتبصر حتى لايوجه هذه الامة الى مافيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق و يفهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

﴿ الفتوح في عهد عمر ﴾

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني و يترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار أمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى جنداً يقوده بهمن جاذويه فسار اليه المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتبع

الطلب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الاخير فاستدعى عمر فقال له اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به اني لارجو ان أموت من يومى هذا فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثني ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كأن أبا بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره : كان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثني فقال - أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله مابعدها : وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى

عليه أهله الا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الامم أين عباد الله الصالحون - فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. فسار أبو عبيد بالجند وهو الامير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزرميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد

كان أول ماصنعه رستم أن كتب الى دهاقين السواد ان يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فاثاروا الناس من أعلى الفرات الى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق (٢) لما رأى ذلك المثنى ضم اليه مسالحه وحذر وحينماجاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار الى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد (٢) موضع قريب الكوفة من ارض العراق

قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فاجاز أبو عبيد ما فعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ما ترونى فاعلا معاشر ربيعة أؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا الى كسكر (١) لاجئين الى نرسي فاجتمع اليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاءوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل ما يأكل أوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار اليه أبو عبيد حتى نزل المروحة (٢) موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار الناس على ابى عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمذار ونغيا وميسان ودست بيسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس حتى عقدالجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا ممانزل بهم

و بلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيدلو كان عبرفاعتصم بالخيف أو تحيز اليناولم يستقل لكناله فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الاولى مخالفة أبي عبيدلمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم ينته والذى زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الاحمق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعة الجسر عند مارأى جولة المسلمين وارادتهم العبور ولولا ثبات المثني بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثني من الجنود الا القليل لاقدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولأن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقدعلم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا اليه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم و يفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران الى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران اليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها

(١) نهركان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بعد فمبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر المثنى بالافطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فابصر المثني رجلاً يستوفز و يستنتل من الصف فقال مابال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل نقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فاغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال انى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ماصادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا فى الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا فى البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمئة الف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر واحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتي أحرجتهم فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فانها كانت منى زلة لا ينبغي احراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى فى أثر المنهزمين من اتبعهم الي أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس حتي سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع لا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد و يصوب في الجزيرة و يبث السرايا للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين اولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين و بها النمر

---

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الاعلى والاسفل من طسوج سورا

وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتي رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين الى المثنى وقد غرقوهم: كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين الى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك وجه أنه مثل وانهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا انهما ما أرادا بذلك الا المثل واعزاز الاسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران الى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمتنافسان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن والله لتجتمعان او لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأي الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في نساء كسري وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأي وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخاً وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة

احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسري أوموضع موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والابلة . بلغ المثني ذلك كله فكتب به الى عمر ولم يصل الكتاب الي عمر حتي كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثني على حاميته حتى نزل بذي قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق فى المياه التى تلي حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) الى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذي الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف الى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا الى المثني فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا اذا

---

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط (٢) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذبالة بينه وبين القرعاء ٦ ميلا (٣) بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان (٤) موضع على ثلاثة اميال من المدينة على طريق العراق

أرادوا ان يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في امارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادي الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فان كان ما يرجو من الفتح والا أعاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث الى علي وكان قد خلفه على المدينة والى طلحة وكان علي مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم ان الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الامر تبع لاولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة): وهذا الخطاب يبين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الاساس لذلك

النظام . ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سطة ولا خطيباً ولا شاعراً الا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية ـ فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فأنزل بهـا فسار حتى اذا وصل الى زرود نزل بهـا وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل الي سعد وصيته لانه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتي شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيـه اذا جاءك كتابي هـذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشـهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية وا كتب الي بالذي يستقر عليـه أمرهم ففعل سعد ما أمر

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الـكوفة

به فقدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجردتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الامير ويليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبية وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه ببارحة شراف

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا أن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك

(١) الدآدى ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء

بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر من ورائكم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحضوض (٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق (٤)

(١) خندق سابور في برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفا من شرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر وبني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لاهل البادية من السواد (٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرىء القيس شرقية الفرات وغربيه بساتين

والحيرة وان ماعن يمين القادسية الى الولجة فيض من فيوض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون انغاضنا واقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاءه مسلم الى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالامانة قوله له انى قد ألقي في روعي أنكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه باشارة أو لسان كان لا يدري الاعجمى ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتي جاؤا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ماجاء بهم ومادعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ

ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك
ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا
وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من
آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله
وأقمناكم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان
اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم والا قاتلناكم فقال يزدجرد انى لا أعلم فى
الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل
بكم قرى الضواحي فيكفونا اياكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا
لهم فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً
الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم
فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال أيها الملك ان هؤلاء رءوس
العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وانما يكرم الاشراف
الاشراف ويعظم حقوق الأشراف الاشراف ويفخم الأشراف الاشراف
وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد
أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبنى لأكون الذي أبلغك ويشهدون على
ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن
يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك
طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ولا نلبس الا ما
غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على
بعض وان كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت

حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله الينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا ان ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولاحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت الا من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أورد كم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم

بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن فى تعبية كبري وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل فى مجلسه ماقاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أري قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسي وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم علمت ان أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين لقد رمي بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة

ثم اجتمع رستم أمره على عبور العتيق فسكره ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الاخبار الي يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبون كانت به فكان مقيما على

القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الامر والنهي الى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الامر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب
انى امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة ان تؤكل حين فرت عنها خيلها نفارا فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الاسدى ولم يكن المسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم الا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفها فنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمئة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضي جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس

في هذا اليوم ويسمى يوم ارماث

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحي فأسلموهم الى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التى أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها الي العراق وأميرها هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها وبرقعوها حتي صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الابل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الاول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمي هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفى اليوم الثالث نقلت القتلي والجرحي ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لاكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل ونفض رأسه نطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمي به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولي فوثب فى العتيق فتبعه الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأي العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسري لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس

وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأي ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتي قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادي قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمي يوم عماس وليلته تسمي ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا على الفرس ولا على غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر هذا الكتاب (أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار وعلي طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لايشبههم الاسود ولم يفضل من مضي منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) : كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح الى انتصاف النهار فيرجع الى أهله ومنزله وفي اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبد الله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يجري وراءه

ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخي فقريء كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (ان أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الايام لنا ولم يف به أحد علمناه الا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعي أهل السواد ان فارساً اكراهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الارض) ثم كتاب آخر يقول فيه (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا ان أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا في أرض رغيبة والارض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه الا خيراً وان من ادعي فصدق أو وفي فبمنزلتهم وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وان يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم الا القتال وان يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح — فكتب عمر جواب الكتاب الاول يقول

(أما بعد فان الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات لا في أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة

ولم يرض منه الا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وان رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور واقمع للباطل من الجور وان رؤى شديدا فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعي أنه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذا اليهم وأبلغوهم مأمنهم وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى ان يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) — فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد ان يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعي الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الي واحدة من اثنتين الاسلام أو الجزاء فصارت فيئا لمن أفاء الله عليه فهي والصوافي الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسري وكان خراج كسرى على رءوس الرجال علي ما في أيديهم من الحصة والاموال — ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه

كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفىء من وثقوا به وتراضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الابلة لانها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها الى الابلة لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتي أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الابلة وهي مرفأفارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها فى رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربيا عظيما تنفصل منه الجنود لحرب فارس الا أنها لم يتم تمصيرها الا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم علي المسير الى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان فى العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم علي شاطىء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذى قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادي الى القادسية وكان كلاماأبدن فيه كالاوابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب   بين جمادى و رجب
أمر قضاه قد وجب   يخبره من قد شجب
تحت غبار ولجب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية و بقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حرباً

غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الاهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصعد الباقون الى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا على شاطيء دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصر واُبهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوي الشرقية فنزل سعد ببهرسير وأنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى الجهة الشرقية لانه لم يكن هناك مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا اقدضموها الى الشاطيء الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور نعبر الجند كله خوضاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل مافى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأي أهل المدائن مايفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله الى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلي فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة

يوم دخول المدائن لانه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الاموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجنائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسري وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المقبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة واشباه ذلك ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا علىّ في هذا القطف فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك الا ما كان من علي فانه قال يا أمير المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية انك أن تقبله علي هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولي النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول علي ما سقت دجلة والثاني علي ما سقى الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند ومابعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى آذربيجان والباب والى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد وان كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذراً فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب الا طرقهم فأرسل سعد بالخبر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين له أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثنى عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى

وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فسار القعقاع حتي أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لانها هي الثغر الذي يفصل بين السوادو الجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر المسلمون على ما ملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الانفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس و يدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلمتني به فقال والله ما على وجه الارض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لاأقوي على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا و بما صنعوا و بما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذ الخطيب المصقع فقال زياد هذه بالجملة المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرار الفلاحين على حالهم الامن حارب أوهرب منك الى عدوك فادركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية فى غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه الى

ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى الابواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان (١) فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا الى الجبال فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح فى مسيره هيت (٣) وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهلها على الجزاء

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريقة ادارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى فى أوجههم تغيراً فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب الى سعد

---

(١) كورة بها عدة مدن منها اريوجان عن يمين حلوان للقاصد الى همذان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات (٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار مجاورة للبرية

أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب اليه سعد ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب اليه عمر أن العرب لا يوافقها الاما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتي أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا الى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود اليها فأرسل سعد الى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا اليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقي بالمدائن جنداً ممن رضى الاقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن وجعل على بناء المدينة أبا الهياج بن مالك الأسدي وأوضح له مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والازقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمي عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للاكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذى بناه له

فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبيء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وان نزلها المسلمون سنة ١٤ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

فتح الجزيرة (٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر احداها يقودها سهيل ابن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عتبة بن الوليد لاخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ

---

(١) في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة
(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابله من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الاسلامية الكبري (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك

وأمر عمر ان كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر من شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما بلغهم توجه الجنود الى كورهم تفرقوا كل الي كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لاتنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا الى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذات ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطىء دجيل فصار شاطىء دجيل بين المسلمين والهرمزان

---

(١) مجموع كورعدها ياقوت عشراوهى سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الاهواز كلها ومهرجان قذق (١) ماعدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف فى حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراد فابلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ لأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز و بذلك اتسق للمسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فاخبرنى أان ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الاحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم اذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

غزو فارس من البحرين

---

(١) كورة واسعة ذات مدن وقري قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق الى همذان فى تلك الجبال

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين الى فارس فتسرعوا الى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم في البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً فعبرت تلك الجنود فخرجوا في أصطخر (١) وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوي النجدة فخرجوا في اثنى عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم

---

(١) مدينة كبيرة بفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول اردشير الي جور

انكفئوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به و بلغ عمر خبره فمر به زائراً لقبره وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ﻫ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس (١) وهو بمرو فكتب اليهم يذكرهم الأحقاد و يؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب امراء الثغور الى عمر فكتب الى سعد امير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسي الاشعري وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتي اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها

(١) فارس اسم لولاية واسعة واقليم منيع اول حدوده من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران واعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) اردشير خرة (٣) دارابجرد (٤) سابور (٥) قباذ خرة

فترك رامهرمز ولحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل فى الحصار جماعة من ذوي النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه الى البلد فهدوا الى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان الى القلعة ولما رأى شدة الامر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لاخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً الى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا الى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نبيا قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الاهواز فقال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر انا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخري فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتي به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فجعلت يده ترجف وقال اني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا

بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر اني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين آمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا لمسلم فأسلم ففرض له في العطاء على ألفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حي بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزأمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس : فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل انحائها جمعهم يزدجرد يريد اعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبي همذان فكتب عمر الى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد اليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت اليها الجنود رأوابها جمعاً عظيما متحصنا في حصون قوية ولا يخرجون الا اذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى في الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وانهم لايخرجون الا ان يشاءوا وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبي وكان اكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من اتاك منهم فردرأيه وتكلم عمرو بن معد يكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدى فقال أرى ان تبعث خيلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمشوهم فاذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا الينا استطراداً فانا لم نستطردلهم في

---

(١) مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة ايام ٤ فرسخا وهي اعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على مايسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين اصبهان الى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

طول ما قاتلناهم وانا اذا فعلنا ذلك ورأو ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل الى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فان المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد الى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الى أصحابها وهم:

(١) الاحنف بن قيس التميمى ووجه الي خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه الى أردشير خرة وسابور

(٣) عثمان بن أبى العاص الثقفي ووجه الي اصطخر

(٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجه الى فساودراجرد

(٥) سهيل بن عدى ووجه الى كرمان

(٦) عاصم بن عمرو ووجه الي سجستان

(٧) الحكم بن عمير التغلبي و وجه الى مكران

فاستعدت الجنود للخروج الي أوجهها ففتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان (١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جي والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال اما أن تحمل على واما أن أحمل عليك فقال أحمل عليك فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوي على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جي بالصلح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر الى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى

(١) اقليم من نواحى الجبل كانت قاعدته جيا ثم صارت اليهودية

فتح أذربيجان (١)

بينا نعيم بن مقرن فى همذان اذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان وقزوين فسار اليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى (٢)

بعد أن انتهي نعيم من واج الروذ سار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جرجان (٣) بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب (٤)

كان قائد الجيش الذى وجه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمناً ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له انى بازاء عدو كاب

---

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوين ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب اليها رازي (٣) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الاحساب والاصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقي رجل قد أظلك فسر اليه فجوزه فسار الي سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة الي عمر فاجازه وحسنه وكان فى كتاب صلحهم الأمان لانفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك الا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بارمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار الى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس اليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مر ومن بقي من الاعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون فدانوا له فوجه اليه الاحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مر والشاهجان فخرج منها يزدجرد الى مرو الروذ وكتب الى خاقان ملك الترك يستمده والى ملك الصغد وملك الصين أما الاحنف فاتجه الى مر والروذ حتى اذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الاحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الاحنف حتي اذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر النهر بمن معه فى أهل فارس فعاد الاحنف الى مر وفنزلها وكتب اليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على مابيده : ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الاحنف فخرج اليه الاحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فانهم تعاقدوا مع الاحنف وتراجعوا الي بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الاكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو و بها نيسابور وهراة و بلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وغيرذلك من المدن التى دون نهر جيحون

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فساودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدي كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الاشجعى فان عمر ولاه قيادة جيش لمقاتلة الاكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فان له برداً ومؤنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست فى أدنى الناس فاذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفا ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعته فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ الى باحداهما فجلست عليها واذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج الى

الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لاطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلا وطعامي الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين انا رسول سلمة بن قيس قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدي اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لاأشبع الله اذا بطن عمر ثم قال كيف ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت مابارك الله فيما اختصصتنى به اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبنى واياك فاقره فقسمه فيهم

ولست فى حاجة الى أن أنبهكم الى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفساً ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه

الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض الا أن يردها عليهم فكيف لا نكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتهم نهائياً بين أيدي المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الارض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد ارمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائماً وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان فى أرض الروم

المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح فى بلاد الروم — فتح حمص — فتح بيت المقدس

الفتوح فى بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك فى أول حياة عمر فى أثنائها جاء الخبر بموت ابى بكر واستخلاف عمر وتولية أبى عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت مرته : بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل (١) من أرض الاردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد

(١) من بلاد الاردن بين حوران وفلسطين

وهناك التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم الي دمشق
فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا الى
دمشق (١) وخالد على المقدمة فحاصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على
ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً
شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث
ولما أيقنوا أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون
طمعاً فيهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شيء من أمر العدو عيونه ذاكية
وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً فبلغه ذات ليلة ان الناس
غافلون فى فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم
القعقاع بن عمرو وامثاله وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا
وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا
بالحبال الشرف وعلي ظهورهم القرب التى قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم
وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة الا أثبتاها والاوهاق
بالشرف وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق اكثره
ماء وأشده مدخلاً وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد الا رقي أو دنا من
الباب حتى اذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من
يحمى ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد
المسلمون الي الباب ومال الى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهي خالد إلى أول
من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر

---

(١) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الاسلامية فى عهد الدولة الأموية

الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذى أراد عنوة أرز من أفلت الى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم الا وهم يبوحون لهم بالصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فأجروا ناحية خالد مجري الصلح فصار صلحاً وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحاً وبعد ان تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفى الصباح رأوا الارض خلواً من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج اليه محارباً وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب

الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد الى دمشق وعاد خالد إلي أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جندشنس الى حمص

فتح حمص (١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم الى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شيء تراجعوا الي الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً الى قنسرين فلما نزل بالحاضر (٢) زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا الي خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم: ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثني بن حارثة اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا فنظروا في أمرهم وذكروا مالقى أهل حمص

---

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعي حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية (١) لي يدمعاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين (٢) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الارطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله ان هذا لعمرو أو انه الذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لاصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فارجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلاً فساره وقال إذهب الى فلان ورده اليّ فرجع اليه الرجل وقال لعمرو اذهب فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهي الخلق (٣) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه

---

(١) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام وكانت قديما من أمهات المدن (٢) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين

(٣) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق والا كانت دليلا على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركا جنده من غير راع لهم خصوصا اذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم ان أرطبون انهزم من الناس فأوي الى ايليا ونزل عمرو أجنادين

فتح بيت المقدس

كانت ايلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولي لامر حربهم عمرو بن العاص لانه ولي على فلسطين وايليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولي لعقده عمر بن الخطاب فكتب اليه عمرو بذلك فسار الى الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم آياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين انها يلامقة وان علينا السلاح قال فنعم اذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل ايليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى

أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا امأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما علي أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ و بعد أن أعطاهم الامان شخص الى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التى علي باب الكنيسة منفرداً فلما قضي صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردماً كثيراً فشرع فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد ان قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين أحداهما قصبتها

الرملة والاخري قصبتها ايلياء — ومما يزيد المسلم شرفاً تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلوبيهم من الوفاء والعدل فاذا قارن ذلك بما أصيب به أهل ايلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفى سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والانصار فسار حتي اذا نزل بسرغ (١) لقيه أمراء الاجناد فأخبروه أن الارض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع لى المهاجرين الاولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولانرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل انه لبلاء وفناء مانرى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الانصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم قال اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس أصرخ فى الناس فقل ان أمير المؤمنين يقول لكم اني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس انى راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح افراراً من قدر الله قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعي الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا

(١) اول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام

به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فلما أخبر الخبر قال عندى من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم الا ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمي طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء الا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس أن هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتي رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير الى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتي الشام فنظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الاحياء من الاموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وانى قد وليت عليكم وقضيت الذي علي فى الذي ولانى الله من أمركم الى أن قال — فمن علم علم شيء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم و بلال يؤذن له الا بكى حتي بل لحيته وعمر

أشدهم بكاء و بكي من لم يدركه ببكائهم لذكره صلي الله عليه وسلم ثم رجع عمر الى المدينة

وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي : ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص فى محاضراتنا أحببنا أن نرجيء تفاصيل فتحها الى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقاً

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام ومصر وأديرت البلاد على مقتضي العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لانه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة عما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيما لكثير من المدنية الاسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسيا في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبي بكر الصديق

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر فى عماله — معاملة عمر للرعية — عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح — رأى عمر فى الاجتماعات — وصفه و بيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الامراء عين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها الا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه ومن طرفه فى القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال انى رجل من اهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت وهو الذى قال حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئاً فضربها

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به ... فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... اذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمي حسبما جاء بكتاب

القضاء الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضي بها فى الاسلام

وولى أباالدرداء بالمدينة وهو من الصحابة : ومن أعرف من ولاهم أبوموسي الاشعرى ولما كان العهد الذى ولاه به مما يبين لناشيئاً من نظام القضاء وأصوله أحببنا ايراده ودنكموه

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة (١) محكمة وسنة متبعة فافهم (٢) اذا أدلى اليك فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس (٣) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولاييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر : والصلح (٤) جائز بين المسلمين الأصلحا أحل حراما أوحرم حلالا : لا يمنعك (٥) قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضى بها وهي لاتعدو ماحده الله وهذا ما اشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما اشار اليه بالسنة المتبعة (٢) يريد ان من يدلى بحجته مهما يكن مصيبا بليغا فان كلامه لاينفعه اذا لم يكن لكلامه نفاذ الى قلب القاضي وذلك لا يكون الا بالتنبه لما يقل من الخصوم (٣) هذا اساس المساواة التى بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فان القاضى اذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت المقالة فيه وان نجا من مغبتها اليوم فانه ليس بناج غدا (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لاقيمة له لان الخصم اذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه عما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور (٥) يريد بذلك ان القاضى لايتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به فى قضيته اذا ظهر له وجه الخطا كان عليه ان يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا وانما كان هذا مراده لان عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على مانقضي

أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل : الفهم الفهم (١) فيما تلجج فى صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل (٢) لمن ادعى حقاً غائبا أمداً ينتهى اليه فان أحضر بينته والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمي المسلمون (٣) عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان : واياك (٤) والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجري ويحسن به

---

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للاحكام وهو القياس وهو ان يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من اجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضي ان يكون عارفا باسرار التشريع حتى يمكنه هذا الالحاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهدا لا مقلدا غيره فى تفسير او تأويل (٢) يشير بذلك الى جواز التاجيل اذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذى ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه (٣) يشير بذلك الى اصل عام وهو ان الاصل فى الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض الا اذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الاول الجلد فى الحد ويظهر انه يريد بذلك حد القذف لان الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا الثانى المجرب عليه شهادة الزور الثالث الظنين فى الولاء او النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم او يكون لهم نسب فى قبيلته فينتسب الى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون فى زمننا كذلك (٤) يشير بذلك الى ما يجب على القاضى من الاناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم اوارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل انسان حريته فى الدفاع عن نفسه

الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسا لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم الاسهلا مجردا عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعنى انه مستقل تمام الاستقلال فى قضائه لا يمنعه شيء ان يحضر إلى مجلسه الامير فمن دونه

سيرة عمر فى عماله

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الامراء فكان الوالي فى نظره فردا من الافراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لايعدله شيء من أخلاقه اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أوعامله بما تقضي به الشريعة أوعزله

وسواس الامم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يري ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لايقيد من عماله ولعل ذلك لما كان فى عهده من

الاضطراب فى الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لان مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والامر قد استقر فلم يكن هناك مايدعو الي مراعاة هذه السياسة

كان اذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم انى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليه دوني : وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الامصار انى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وان يعدلوا فان أشكل عليهم شيء رفعوه إلى : وكان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول انى لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على اشعارهم ولا على أبشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل واني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم :وخطب مرة فقال أيها الناس إني والله ماأرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذو أموالكم ولكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لاقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال ياأمير المؤمنين أرأيتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده اذا لاقصنه منه وكيف لاأقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألالاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولاتجمروهم فتفتنوهم ولاتمنعوهم حقوقهم

فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم وكان للوصول الى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم موسم الحج ومن كانت له شكوي أو مظلمة هناك فليرفعها واذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد الى المظلوم ظلامته ان كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رءوس الاشهاد فى موسم الحج فكانوا يتعمدون عن ظلم أي انسان كان

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الافراد فقد استحضر سعد ابن أبى وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير على البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الاثر الصالح فى الفتوح الاسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع فى كلمه القليلة ان عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسي أميراً فسلم ما فى يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم : وشكي اليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الاولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كاف ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لا يدرى علام استعمل فاختبره عمر فى ذلك اختباراً يدل على سعة علم

عمر بتلك البلاد فلم يحسن الاجابة فى بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني ولقد ساءنى حين عزلتنى فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر في كل أيامه الا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله الى كل شكوي ليحققها فى البلد الذى حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً الى محمد بن مسلمة الذى كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقا سريا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملاء من الاشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير فى أنفس الشهود لان يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع اليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما فى أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل الا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من من عماله يستحق أن تقع به تلك العقوبة اذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثري ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها : لم ير عمر أمام ذلك الا هذه المصادرة وقد اكتفي بأن يشاطر العامل ما يملك وليست

أريد أن أحسن هذه الطريقة ولى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ماهذا يا عتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال : وكانت التجارة هي التكأة التى يتكئ عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية

معاملته للرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته و رحمته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم و يحس من ذلك بمسؤولية عظمي فكان يقول لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأتيه بقيد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى : قال الحسن البصري قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا ترفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) و روى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال يا أسلم اني أري هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت أدن بخير

أودع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر قالت ماء أسكنهم به حتى يناموا الله بيننا وبين عمر فقال أي رحمك الله مايدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل علي فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتي أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله علي قلت انا أحمله عنك قال احمله علي مرتين أو ثلاثا كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فألقي ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلي عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحي ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول ان لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل علي فقال يا أسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أري ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولي عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقوا كم عليكم وأشد كم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكني عمر مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فان عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهي عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائماً في يده أنى سار وكان الناس يهابونها اكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روي الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق الى منزله فأعطاني ستمئة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها . فعمر كان مؤدباً حكيماً ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد ان عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص اليه فعلاه عمر بالدرة وقال انك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الارض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك : والذي أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بديلا

كانت الرعية ـ مع هذا ـ تهابه مهابة شديدة . روي أسلم ان نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتي والله مانستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن ابن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتي تخوفت الله في ذلك ولقد أشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لانا أشد منهم فرقاً منهم مني

عفته عن مال المسلمين

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده اليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخماً لمن رتع فيه حتي انه كان يقتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغاً لاعتراض قصار النظر . كان عمر يري انه لاينبغي أن يأكل الا مما يأكل منه أقل رعيته لايتجاوز ذلك إلى مافوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده مايسدد منه احتال له حتى اذا أخذ اعطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة مايعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيدها اياه فى رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر فى ذلك فغضب وقال من هؤلاء لاسوءنهم قالت لاسبيل الى علمهم قال أنت بيني وبينهم ماأفضل مااقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع

قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه
وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأي مبسط
كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه فى الصيف فاذا
كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله
لاضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وانما مثلى ومثل صاحبي
كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الاول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه
الآخر فسلك سبيله فأفضي اليه ثم اتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي
بزادهما لحق بهما وان سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما

وكان يتحاشي أن ينتفع احد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روى
مالك في الموطا أنه خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش
إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الاشعرى وهو أمير البصرة فرحب
بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على امر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من
مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا
من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين
ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن
يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك الي عمر قال أكل الجيش
أسلفه قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال
وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال ماينبغي لك ياأمير المؤمنين هذا
لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله

فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من احفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد اليه أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر اذا نزل به الامر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لا خير في امرأ برم من غير شورى وكان لشواره درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به. ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الامر تبع الاولي رأيهم مارأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم فجعل أولى الامر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع لما أخذ به الامام من رأى أولى الرأى. وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع الى رأيه. رأي مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق اذا رأوا منه انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس أن احسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسره ذلك: وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه فى سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم

رأي عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل الى ان تكون مجتمعات الناس عامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم الى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس ان عمر قال لناس من قريش بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان قد قسموا الاسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس وفي الحق ان ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بافراد يجلسون اليهم مضيع كثيراً لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيدة فائدة كبرى وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم ان كثرة المجالس تدعو بدون ريب الى كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الاقوال المتباينة في الدين والذي خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعا ذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حباً جماً ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه الى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلا بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ اكثر من ماله ولا ضعيف

يخاف أن يضيم منه ماله كان حكيماً يضع الشيء في موضعه يشتد حيناً و يلين حيناً حسبما توحي اليه الظروف التى هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف مايصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لاتألم السير فيه فصيرها أمة حرة لاتستطيع أن تنظر الى خسف يلحقها من أي انسان ولذلك نقول ان عمراً تعب من بعده فان النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها والا فأين ذلك الرجل الذى يفني في مصلحة رعيته ولا يري لنفسه من الحقوق الا كالادناهم مع تحمله مشقات الحياة واتعابها . العربى يستدعي سياسته حكمة عالية فانك ان اشتددت معه ذللته فيهلك وان لنت معه ليكون رجلاً نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لاتهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير الا فى رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التى كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بان العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفة فى أى زمن من الازمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر فى الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج فى الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فولدها عبيد الله وقد فارقها فى هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبى أمية من بني مخزوم وقد فارقها فى الهدنة
وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة
وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصما وهـذه طلقها
وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها
وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر
وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها الى عائشة فقالت الامر اليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لى فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة الي عمرو بن العاص فأخبرته فقال اكفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منه قال ما هو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسا ويخرج عابسا

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — أول قضية نظر فيها
كتبه الى الامصار — أول خطبة له — الفتوح فى عهده

مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتي يعلم الناس أنه ليس في مكنة انسان أن يرضى الخلق كافة فان عمر اذا كان قد أرضي العرب بما صنعه لهم وأرضي عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان عليهم لانه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لانفسهم عبيدا وقد احضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون الى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه نيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وايش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال قد بلغني انك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال

فاعمل لى رحاً قال ان عشت لأعملنّ لك رحاً يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد آنفاً ثم انصرف عمر الي منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهد فانك ميت فى ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك الى صبيحتها. ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر أو أنه كان عالماً بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فما ذا يدعو كعباً الى انباء عمر بهذا النبأ والجواب عن ذلك سهل فانه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيماً فان كثيرا منهم يرون بعد ذلك ان توارته فيها علم كل شيء وأنه صادق فى كل مايخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحى به اليه وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الاخبار الاسرائيلية التى لاندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لان التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر الي صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفاً يسوونها فاذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس في يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهنّ تحت سرته وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن ابى

البكير الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفي الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال أخرج فانظر من قتلني قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله ان لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والانصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب

ومابي حذار الموت أني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته . وروي أن طعنه كان في يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الاحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدي وعشرين ليلة من متوفي أبي بكر . والصحيح الاول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ الى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه

٣ ﴿ عثمان بن عفان ﴾

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب اليه أن يعهد الى خليفة من بعده فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من أهل بيتي ان كان خيراً فقد أصبنا منه وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر انني لسعيد

ثم كرر عليه القوم بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار الى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فليختاروا

منهم رجلا فاذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه ان ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الاجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رءوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم فى الامر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لان تدفعوها أخوف منى لان تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس

فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف ايكم يخرج نفسه منها و يتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ماتقول ياأبا الحسن قال أعطنى ميثاقاً لتؤثرن الحق ولاتتبع الهوى ولاتخص ذا رحم ولاتألوا الامة فقال عبد الرحمن أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لاأخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار الامر فى عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم ولايخلو برجل الا أمره بعثمان حتي اذا كانت الليلة التى يستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو اليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلى دار مروان فقال له خل ابنى عبدمناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي لعلى : وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لى فاختار قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعلى أحب الى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال ياأبا اسحاق انى قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولولم أفعل وجعل الخيار الى لم أردها ثم قال لايقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضي الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور الى على فجاء فناجاه طويلا ثم أرسل الى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث الى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار والامراء حتى

التج المسجد بأهله فقال أيها الناس ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الامصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعي عليا فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ماقال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك علي تأثر وخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموي القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الاخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها الى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر اليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهده ولكنه لم

يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التى توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول فى غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلي الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمني هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسري وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشتري بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم ولما توفى عليه السلام كان لابى بكر ثم لعمر أمينا كاتباً يستشار في مهام الامور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشوري له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٤٤ م)

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فانظروا بأى شىء قتل فجاءوا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فاذا هو على الصفة التى وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتي الهرمزان فقتله ثم مضي حتى أتى جفينة

وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعدبن أبي وقاص الى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل اليه من أتي به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر فى أمره فلما بويع عثمان جلس فى المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا على في هذا الذي فتق في الاسلام مافتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالامس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص ياأمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى وكان ذلك حلا حسنا لتلك المشكلة

كتب عثمان إلى الامراء والأمصار

كتب عثمان الى امراء الامصار كتاباً عاما هذه صورته (أما بعد فان الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب إلى أمراء الاجناد بالثغور (أما بعد فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغنى

عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه

وكتب إلى عمال الخراج (اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والامانة الامانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب إلى العامة من المسلمين بالامصار (اما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة فاذا استعجم عليهم امر تكلفوا أو ابتدعوا

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (انكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم أرموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة

الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً : المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا)

الامصار والامراء لاول عهد عثمان

كانت الامصار الكبري لآخر عهد عمر واول عثمان هذه

(١) مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

(٣) صنعاء وأميرها يعلي بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف

(٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة

(٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفى وهذه الخمس فى الجزيرة العربية

(٦) الكوفة ومايتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

(٧) البصرة ومايتبعها وأميرها أبو موسي عبدالله بن قيس الاشعرى وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان الاموى

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمى

الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازى أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف

بالري وكان بالكوفة اذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الاسلامى فى تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو واعادة من شق العصا الى الطاعة ففي عهد امارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلى الى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد امارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان (١) سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادلة ابناء عباس وعمر وعمرو ابن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفى سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى فى بلاد الخزر (٢) حتى وصل بلنجر وهي اكبر مدنهم خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخري أخذت طريق جيلان وجرجان .وجعل علي ثغر الباب بعد عبد الرحمن اخوه سلمان

(١) بلدان واسعة على شاطىء بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الرى وقومس والبحر و بلاد الديلم والجبل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الابواب المعروف بالدربند

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد امارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفى عهد امارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس و بموته انقضت الدولة الساسانية

وفى سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار الي قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الاحنف بن قيس الي طخارستان (١) ثم الى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للاحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار الى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب الى خوارزم فاستعصت عليه فمادعنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد الى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الرووم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان الى أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتي وصل تفليس(٢)

---

(١) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقى بلخ وغربي نهر جيحون و بينها و بين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربى جيحون أيضا الا انها أبعد من بلخ وأضرب فى الشرق من العليا واكبر مدينة بطخارستان طالقان (٢) مدينة بارمينية الاولي وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الابواب

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم فى البحر الا أن عمر كان يمنعه من ذلك لانه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين

كتب عمر الي عمرو بن العاص صف لى البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليه فكتب اليه عمرو (انى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ان ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق) فلما قرأه عمر كتب الى معاوية (لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له فى ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل وسار الى قبرس وأمده من مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن اوادهم من ورائهم وعليهم ان يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو فى البحر وأعد لذلك اسطولا جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بنى فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه احد ولم ينكب ولكنه خرج فى يوم طليعة فى قارب فانتهي الى المرقى من ارض الروم فنذر به

فتكاثروا عليه وقاتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الاسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره اليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار اليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الاسطول. وسير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى افريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس الى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهي أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا اليه ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار

وفي عهد امارة عبد الله بن سعد بلغه مجيء ملك الروم باسطول عظيم فيه ستمئة مركب فسار اليه ابن سعد باسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام باسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر باسطول قسطنطين فاتفق الفريقان علي ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم . ففي عهد عثمان صارت الخلافة الاسلامية دولة بحرية بما صار اليها من مراكب الروم بما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الاسلامية التي كان يشن الروم عليها الاغارة من وقت لآخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الاحوال الداخليـة والفتن

الاحوال فى الداخلية

لابد ان نبسط القول فيما كانت عليـه أحوال المسلمين فى الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هـذه الأمصار الثلاث

روى الطبرى عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إني سننت الاسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ألا وان الاسلام قد بزل ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا الى النار — فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام فكان مغموماً فى الناس وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنـة كانت في العامة . وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهـم وقال ان أخوف

ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد فان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس فكان أحب اليهم من عمر وروى الطبري بسنده قال لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الامصار وانقطع اليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كاعضاء الاسرة التي لها الامر كبارها موشحون لان يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولا حقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الاسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقا في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مرها أحقابا طويلة وهم الى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم اذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزه. كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرءوس النابغة فلا يجدون سبيلا الى نزاع أو شر الى ما وقر في أنفسهم من الالفة الاسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين

الرعية وظل العدل وارف فوق رؤوسها

ولي عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لاجل ولما حل الاجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بناس من الرعية على استخرج المال واستعان سعد بناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعداً عن امارة الكوفة وابقي ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على عرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم عتبة كان محببا الى الناس رفيقا بهم: حدث في زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدي وورع بن أبي مورع الاسدي وشبيل بن أبي الازدي فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك علي الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانيا ثم اسلم وكان معروفا بشرب الخمر فاتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فاذاعوا ذلك بين الناس حتي شاع على ألسنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فاخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضي من مثلك بأن

يجيب قوما موتورين عما أجبت اى شيء أستتر به انما يقال هـذا للمريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فاخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان مايقيء الخمر الا شاربها فارسل عثمان الي الوليد فأقدمه المدينة وافتى على بوجوب حده فحدوه حدشارب الخمر وعزله عثمان وولي على الكوفة بدله سعيدبن العاص فخرج حتى أتي الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله اني قدبعثت اليكم وانا كاره ولكني لم أجد بدا اذا أمرت أن آتمر ألا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها والله لاضربن وجهها أو تعييني وانى لرائد نفسي اليوم . ثم نزل وسال عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب الى عثمان (ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعرب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها : فكتب اليه عثمان (أما بعد ففضل اهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم الأن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعا بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فارسل سعيد الى وجوه الناس وأشرافهم

من أهل الايام والقادسية فقال لهم انتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمقسمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت النالة والاذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمناصفتهم وكان فى بعض الاحيان يجلس للناس جلوساً عاما ولا يحجب عن مجلسه أحد فبينما هو ذات يوم فى مجلس العامة وهم يتحدثون اذ قال قائل ماأجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو ان لى مثله لاعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا الملطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتمني له سوادنا ثم ثار اليه جماعة من سفهائهم فيهم الاشترى النخعى وعمير بن ضابيء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما فى مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولاهم لهم الا الوقيعة في سعيد ومن ولاه فكتب اشراف أهل الكوفة الى عثمان بذلك وطلبوا منه اخراج هؤلاء النفر من الكوفة فامر بنفيهم الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف واكرمهم ثم قال

لهم ذات يوم انكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم
بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم
نقمتم قريشا وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم ان أئمتكم لكم الى
اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور
ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن اوليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لايحمدكم
على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد
موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة فى رءوسهم فرد عليهم معاوية
رداً شديدا وعلم أنهم لايصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم فى الكوفة
مه ان هذه ليست بارض الكوفة والله ان رأي أهل الشام ماتصنعون وأنا
أمامهم ما ملكت أن انهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمري ان صنيعكم ليشبه
بعضه بعضا وكتب الى عثمان بانه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود
بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد
ابن الوليد فادبهم عبدالرحمن تأديبا شديداً حتي اظهروا الرجوع والندم
فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم فى الوقيعة بعثمان
وعماله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث
الاشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان
العبدي وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الازدي وعروة بن
الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي: وفى آخر عهد عثمان خرج سعيد اليه ليبلغه احوال
الكوفة ولما أراد العودة خرج اليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا
يدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسي الاشعري

حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء اهل الحلم وضعف سلطان الامراء وقوة الطاعة لم يبق لها فى نفوس القوم من اثر

وفى البصرة التى هى الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج اهلها على أبى موسي الاشعرى عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة اثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من امارته بلغه أن فى عبد القيس رجلا نازلا على حكيم ابن جبلة وكان حكيم رجلا لصا اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعي فى ارض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الارض ويصيب ماشاء ثم يرجع فشكاه اهل الذمة واهل القبلة الى عثمان فكتب الي ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشدا فكان لا يستطيع ان يخرج عنها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكني بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي الى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم ايها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم الى ما يماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لانه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الانبياء ثم ماهو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن امر خلافته فبلغ شيء من خبره عبد الله بن عامر فاحضره وساله من انت فقال رجل من اهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب فى جوارك فقال ما

يبلغني ذلك فاخرج عنى فخرج حتي أتى الكوفة فأخرج منها فسار الى مصر وهناك وجدمهده بعد أن نفث مانفث بالعراق

أما الامر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فان ابن سبأ لما جاءها ألقى الى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان على وصي محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم قال بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول أمر الامة ثم قال بعد ذلك ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الامر فحركوه وابدءوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الامر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الامصار وكاتبوه ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس الا اهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار فقالوا انا لفي عافية مما ابتلى به الناس فاتوا عثمان فقالوا ياأمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا فقال لا والله ما جاءنى الا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث الى الامصار من يستقصي أخبارها ويعلم علم مافيها فندب لذلك رجالا

سيرهم الى الامصار فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وفرق رجالا سواهم في البلاد الاخري فاقبل جميعهم الا عمارا فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم أما عمار فقد ورد الى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه انه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا اليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران و كنانة ابن بشر وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان محمد بن ابي حذيفة وكان الذي دعاه الى ذلك انه كان يتيما في حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يا بنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلاخرج فلا طلب مايقوتنى قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية والثاني محمد بن أبي بكر وقد كان من الاسلام بالمحل الذى هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فاخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الي هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمما بعد ان كان محمدا وانما مال اليهم عمار بن ياسر لانه كان كذلك حاقدا على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب انه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان وكان قذفا

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الاحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط الا انه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع على عثمان وعماله وذلك ان ابن السوداء لما اتي الشام جاء اباذر فقال

ياأباذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله الا أن كل شيء لله كانه
يريدأن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فاتاه أبو ذر فقال مايدعوك الى
ان تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله ياباذر ألسنا عباد الله والمال ماله
والخلق خلقه والامر امره قال فلا تقله قال فانى لا اقول انه ليس لله ولكن ساقول
مال المسلمين ثم اتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت
أظنك يهوديا ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتي به معاوية فقال
هذا والله الذى بعث عليك ابا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول يامعشر
الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفونها
فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما
زال حتي ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه علي الاغنياء وحتي شكا الاغنياء ما
يلقون من الناس فكتب معاوية الى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز
اليه أبا ذر فأرسله اليه فلما قدم عليه ورأي المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل
المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال ياأبا ذر مالاهل
الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لاينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى
للاغنياء أن يقتنوا مالا فقال ياأبا ذر على أن اقضي ماعلى وآخذ ماعلى
الرعية ولاأجبرهم على الزهد وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد وكان
هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبى ذر وقد وجد الخليفة أنه رأي فائل
فأمر أبا ذر أن يخرج الى الربذة فيقيم بها ويقال ان اباذر هو الذى طلب
منه ذلك فسيره وأجري عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي
أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين الى الاسلام : أما الحال في المدينة

فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لاسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأي عثمان كثرة الكلام أرسل الى عماله بالامصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا اليه عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية وماهذه الاذاعة انى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا الا بى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء لا والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الامر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شيء وماهى الا اذاعة لايحل الاخذ بها ولا الانتهاء اليها قال فأشيروا على فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا اعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال فما الرأى قال حسن الادب قال فما ترى ياعمرو قال أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ان الشدة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرا واللين لمن يخلف الناس

بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين : فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشـدة مع هؤلاء الذين لاهم لهم الا اذاعة الاكاذيب لتنفيذ اغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما اشرتم به على قد سمعت ولكل امر باب يؤتى منه ان هـذا الامر الذي يخاف على هـذه الامة كائن وان بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعـة الا في حـدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب احدها فان سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لاحد على حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله ان رحا الفتنة لدائرة فطوبي لعثمان ان مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم واذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الامراء الى أعمالهم ولم يامر بشيء مما اشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معـه الى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وان كان فيـه قطع خيط عنقي فعرض عليـه أن يرسل له جنداً يقيمون معـه بالمدينـة للمحافظة عليـه فأبى وقال لا أقتر علي جيران رسول الله الارزاق بجنـد يساكنهم وأضيق على أهـل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئيـة ان يثوروا بعـد مبارحة أمرائهم للامصـار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض الا أهل الـكوفة خرجوا بحجـة انهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتي اذا قابلوا سـعيدا بالجرعة ردوه واجتمع النـاس على أبى موسى الاشعري وأقره عثمان ولما رجع الامراء لم يكن للسبئية سبيـل الى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهـل الامصار أن يتوافوا بالمدينـة لينظروا فيما يريدون واظهروا أنهـم يامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن اشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل اليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما اولئك القادمون أخبرهما بما يريدون فقالوا انا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فان أبي قتلناه فرجع الرجلان الي عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فاشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً ان هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم الا انهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لاتتم الا وأني قدمت بلداً فيه أهلى فاتممت لهذين الامرين أوكذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمى واني والله ما حميت حمي قبلى والله ماحموا شيئاً لاحد ماحموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحداً الا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية وانى قد وليت واني اكثر العرب بعيراً وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي اكذلك هو قالوا اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها الا واحداً ألا وان القرآن واحد جاء من عند واحد وانما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا انى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الاحداث ولم أستعمل الا مجتمعاً محتملاً مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله سامة أ كذلك هو قالوا نعم

وقالوا انى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وانى انما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أ كذلك هو قالوا نعم وقالوا انى أحب أهل بيتى وأعطيهم فاما حبى فانه لم يمل معهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما اعطاؤهم فانى انما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لاحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفنى عمرى وودعت الذي لى في أهلي قال الملحدون ما قالوا وانى والله ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم علي الا الاخماس ولا يحل لى منها شيء فولى

المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتفلت من مال الله بفلس فما فرقه وما أتبلغ منه ما آكل الا من مالي

وقالوا أعطيت الارض رجالاً وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ماحوى الله له نظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بامرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دوني وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه فبدأ ببنى أبى العاص فاعطي آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فاخذوا مئة ألف وأعطي بني عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفي بني العيص وفى بنى حرب ولانت حاشية عثمان لاولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئاً مع ذلك الوفد بل أعادهم الى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والالف وأميرهم جميعاً الغافقي بن حريب العكي ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وانما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً عمرو بن الاصم وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الامصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لان ضياعه كانت ببلدهم

وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون علياً لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم: ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الاعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة واتفقوا جميعاً أن يقدموا رواداً ليدخلوا المدينة وينظروا اهل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما علياً وطلحة والزبير وقالا انما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان الى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم رداً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق اهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ اهل المدينة الا والتكبير فى نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم واحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون اخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر اخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم

نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لاحاجة لنافى هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلى ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا اليه قال والله لاأقوم معكم إلى ان قالوا فلم كتبت الينا فقال على والله ما كتبت لكم كتاباً فنظر بعضهم الى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم على وخرج من المدينة : ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذى لااله الاهو ما كتبت ولا أمللت ولاعلمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لايزال يصلى بهم ثم منعوه من الصلاة فى المسجد وحصروه فى داره : وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي ابن أبى طالب لم يفعل مايمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما مراسلات يطلب اليه فيها أن يجتهد فى تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك مارواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه الكامل أن عثمان كتب الى على وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الامر بى أشده ثم تمثل بهذا البيت

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل ... والا فأدركنى ولمـا أمزق)

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعاً فى هذا الامر فكانت الوجوه تتقابل عابسة تبدى عما فى القلوب العيون فلم يكن

هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة المسلمين وقد ادت الحال إلى أن ترك على المدينة رأساً في هذه الفتنة التي نظن أنه لم يكن في امكانه قمعها الا انه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسى كل ما في النفوس لان الامر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لو كانت متفقة تماما لامكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الامر وفعلوا ما فعلوا : لو كان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والائمة الاعلام لما كان لسفهاء الامصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرغت كلمة المسلمين

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه اليه شيء الا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شدوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الامصار أقبلت لنصر عثمان : وفي أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتابا مطولا يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه فسار ابن عباس أميراً علي هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالامر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأي ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد ابن أبي بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئا فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان

زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتمددها وتقح اصابعها فاطعن اصابع يدها ثم اهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت واخرجوا من فيه ثم اتوا بيت المال فانتهبوه واذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

المحاضرة الثامنة والعشرون

اسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب — ترجمته — أول خطبة له — أول عماله

اجمال الاسباب التي أدت إلى قتل عثمان

بعد أن اتينا على تفصيل الحوادث التى أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث

السبب الاول

مهما كان رؤساء الامة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبباً للفتن والثورات فاذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال فى المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الامر فان من يتصفح احوالهم وما كان يبدوا على ألسنتهم من الكلمات

الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء فى وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الاحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول فى لسان العرب انهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التى كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهى عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الاسباب التى أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ماتحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً اذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثانى

كان عثمان معروفا بخلق الحياء واللين أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته وفى إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام (الا استحيي من رجل تستحيى منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الاغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فان الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتي أن خطبته التي قالها على المنبر لاول مرة لم تخل من هذا دعاه الخلق الاول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى فى حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وان حسن عند الحكماء فانه لا يحسن ابداً في سياسة الرعية بل لابد لمقام الخلافة من هيبة فى القلوب تقف بالناس

عند الحد اللائق بهم : انظروا إلى مافعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر و وصل اليه مدلا بمركزه فانه خفقه بالدرة وقال جئت لاتهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفا أوذلة : والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أى تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعو اليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الاحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحد فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحا باب الفتنة الذى يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيروه من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زادهم ذلك الا فسادا لانهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه فكلما اعجزهم باب عدلوا إلى غيره

السبب الثالث

ماخالف به عثمان صاحبه عمر فى اعلام قريش فان عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها الا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا مما حببه اليهم ولكن ترتب عليه ماحذره عمر فانه قد اجتمع اليهم أناس ممن لاسابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم و تقربوا اليهم حتى اذا كان الامر لهم في يوم من الايام كانوا اقرب الناس

اليهم فنبه بذلك ذكرهم والا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً : صحيح أن عليا لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لان أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه علي فلم تكن طلبات أهل الامصار الا نتيجة لمافعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الاعلام أولمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شان اذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الامر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتماعاعليه : لايمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الامر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الاقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل مايهوون ومايحبون وهم فى هذه الحال لايصبرون حتي يتثبتوا مما يلقي عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له ان كان مؤلماً ويسرون ان كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم اكثر ممايحبون أنفسهم وربما يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التى يألفونها

وهى نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم على بن أبى طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبي وصي وانه من اللازم أن يعطى الامر لصاحب الحق لان من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم آثم ثم صار يزيد على ذلك مايدسه مدحاً لعلى بن أبي طالب حتي علا به إلي درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل ادخاله فى القلوب خصوصاً اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى فى نفسه أوماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لاغراض فى أنفسهم اشتغلوا فى الامر بمهارة فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الاول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتي أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقا به من عمر حياته كلها الا افراداً قلائل منهم معاوية بن أبى سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين و اهدأها وكانوا يعيبون عبدالله بن سعد بن أبي سرح لا لانه ظالم أو جائر وانما الامر آخر

وهو أن النبى صلي الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان اذا عفا فانما جر على الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وانما كانت للتأثير فى قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الامر لم يبادروا بأخذ الحيطة لان العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الامة: واذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لان الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الازمان مما يتجنى به على أولى الامر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقي هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين ففى بعض الاحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والاسنة وفى بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الالان المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلي غرض من الاغراض: ولو نظرنا إلي المسئلة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصول الاسلام ثم نحكم بأنهم اخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه وغاية الامر أن

الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الامة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها الا ان كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فانهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن ولف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً : وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك ان كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه أن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب مافعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن الا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته الا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ — ٢ تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم وولدت له ولداً اسمه عبد الله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم اختها

٣ وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الاصغر فمات

٤ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسى فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمرو ومريم

٥ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات

٧ وتزوج رملة بنت شيبة من بنى عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم : وقد توفي وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة — القاسم بن ربيعة الثقفى على الطائف — يعلى بن منية على صنعاء — عبد الله بن ربيعة على الجند — عبد الله بن عامر على البصرة — سعيد بن العاص على الكوفة — عبد الله بن سعد على مصر — معاوية بن أبي سفيان علي الشام

٤ ﴿ على بن أبى طالب ﴾

كيف انتخب

لم تكن الظروف التى حصل فيها انتخاب على بن أبى طالب مشابهة لما كان عليه الحال فى انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا الى الجماعة وأجمع

رأيهم على انتخاب أبى بكر . وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود فى المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الامر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر الا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الامصار التي لم يكن لها اشتراك فى الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم كان خارج المدينة منهم المرابطون فى الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة

كانت الكلمة العليا فى المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الاشتر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه فى الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحدونه فيهما : فروي الطبري عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقال مالك الاشتر وسل سيفه والله لتبايعن أو لاضربن به مابين عينيك فبايعه وبايعه الزبير : وروى أن عليا قال لهما ان أحببتما أن تبايعاني وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لاأبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك منى بأس قال خلوا سبيله : وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال

لا أبايع حتى يبايع الناس قال ائتني بحميل قال لا أرى حميلا قال الاشتر خل عني أضرب عنقه : قال علي دعوه أنا حميله انك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً : وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة الا من فر ولحق بالشام

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة باحدي وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان على مراهقاً وكان مقيما مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الاسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة ان ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون في وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر ان يسلمها لاهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بينته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الاثر المحمود والمقام الذى لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعا يخوض الغمرات ولا يبالى بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان على يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا

يعدلون به غيره لماله من شرف القربي والصهر ولكن المسلمين رضوا أبابكر للخلافة فلم يبايع الا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد ابو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم الا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالامر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الاحكام الشرعية ولما عهد عمر الى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الاغلبية له الا أنها لم تصادفه وصرفت عنه الى عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى ان اسمه استعمل للتنزير بالناس حتى يهيجوا علي خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً ان لم تقم معنا فلم كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك . ولما انتهي أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

اول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها الى الله سبحانه يؤدكم الي الجنة ان الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل أذي المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا

الله عز وجل ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض

ولما أراد علي الذهاب الي بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها اليك وأحذرن أبا حسن　　انا نمر الامر امرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن　　بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن　　حتي يمرن على غير عنن

فقال علي وذكر ما كان

انى عجزت عجزة لا أعتذر　　سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلى ما كنت أجر　　وأجمع الامر الشتيت المنتشر
ان لم يشاغبنى العجول المنتصر　　أو يتركونى والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بانفسهم فقال لهم انى لست اجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهل ترون موضعاً لقدرة علي شيء مما تريدون قالوا الا قال فلا والله فلا أري الا رأياً ترونه ان شاء الله ان هذا الامر أمر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض من أخذ بها أبداً ان الناس من هذا الامر ان حرك علي أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتي يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتد علي قريش وحال بينهم و بين

الخروج وانما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم و بعضهم يقول والله لئن ازداد الامر لاقدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا الي ما قال على أمثل و بعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله ان علياً لمستغن برأيه وأمره عناد لانراه الا سيكون على قريش أشد من غيره

اول أعمال على

رأى على أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل اليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانياً فأبى ذلك اباء تاماً كأنه قد وقر في نفسه ان هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وان الابقاء على واحد منهم يوما كاملا نقص في دينه. ولو كان الامر قد استتب و بايعه أهل الامصار لما كان في عزل الولاة شيء لان الخليفة هو الذي يعطى الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع انه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال على الامصار فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة . وعمارة بن شهاب الي الكوفة. وعبيد الله بن عباس الى اليمن. وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر وسهل بن حنيف الى الشام

فاما سهل فانه خرج حتي أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام قالوا ان كان عثمان بعثك فحيهلا بك وان كان غيره بعثك فارجع. قال أوما سمعتم بالذى كان. قالوا بلى فرجع الى على

وأما قيس بن سعد فانه سار حتي أتي مصر فافترق عليه أهلها فرقاً فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتي وقالوا ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم والا فنحن علي جديلتنا حتي نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع علي مالم يقد اخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتي أتي البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر . وأما عمارة فانه سار حتى اذا كان بزبالة لتيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو الى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وان أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن فجمع يعلي كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر علي حاميته الى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل فى جميع الامصار الكبرى الاسلامية

ففى الشام كان الامير معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع اليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض ان يدخل فى بيعته لاسباب (١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) انه آوي قتلته في جيشه (٣) انه كان بين الرجلين نفور أدي الى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن امارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد

الامارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختارا في بيعة نتيجتها اذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للامارة عليهم ولم يرَ لعلي بيعة توجب عليه طاعة يضطر اليها اضطراراً

أرسل علي الى معاوية سبرة الجهني يطلب اليه ان يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع اليه طوماراً مختوما عنوانه

من معاوية الى علي

وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الاول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضي الرسول حتى دخل الى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ماوراءك قال اني تركت قوما لا يرضون الا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألست موتورا كترة عثمان اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع أمنه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل اني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل الا بشق الأنفس

أحب النـاس أن يعلموا رأي على فى معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهـل القبلة أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن على دخل عليه ودعاه الى القعود وترك الناس فدسوا اليه زياد بن حنظلة التميمى فجلس اليـه ساعة ثم قال له علي يازياد تيسر فقال لاى شيء قال تغزو الشام فقال زياد الاناة و الرفق أمثل

ومن لايصانع فى أمور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميـاً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف علي المـدينة قثم بن عباس وأقبـل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو علي ذلك اذ فجأه ماهو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وأنهم توجهوا الى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وان تبتعد عن المدينة في هذه الاوقات وقد علمت وهي بمكة ان عثمان قتل وانه قد بويع لعلي بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هـذا نصها (ان الغوغاء من اهـل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا ان عاب الغوغاء علي هذا المقتول بالامس الارب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعـدوان ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البـلد الحرام وأخذوا

المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة فى ذلك الوقت عبدالله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبدالله ابن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا فى وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية الا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الاسود الدؤلى ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتي هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم ان يأتوا فى اصلاح هذا وقرأت لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر

بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ننهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والانثي فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره : ثم سألا طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع عليا قال بلى واللج على عنقي وما أستقيل عليا ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان الى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج اليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه فى ميسرة المربد ووقف الآخرون فى ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كانه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس فى معني ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتي حجز بينهم الليل وفى غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا الى ان زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم الى الكف فيأبون حتى اذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا الى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فان كانا قد بايعا كرها فالامر أمرهما والا فالامر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو

كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم جمعة فدخل المسجد ونادى ياأهل المدينة انى رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين فلم يجبه أحد من القوم الا ما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الانصارى فى عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة واخذ بيده صهيب الى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت. وعند ذلك رجع كعب الى البصرة. وكان علي لما علم بخبر كعب كتب الي عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل وان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظر نا ونظرا فلما عاد كعب الى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الامر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بان يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد الى علي. وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل فى نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن كانت له شركة فى دم عثمان ثم نادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة الا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم اذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا باخبارهم الى أهل الشام والى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به: واستمروا منتظرين ما تاتيهم به الاقدار

روى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها وهو ضارب

بلحيته على زوره فقلت ياأبا محمد أري أحب المجالس اليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك الى زورك ان كرهت شيئا فاجلس فقال ياعلقمة بينا نحن يدواحدة على من سوانا اذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا انه كان مني فى عثمان شيء ليس توبتى الا أن يسفك دمي في طلب دمه قلت فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالا فان يك شيء يخلفك فقال ماأحب أن أرى أحداً يخف في هذا الامر فامنعه . فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه فى عياله وضيعته قال ما أحب أن أسال الرجال عن امره

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمل - صفين

أمر على

لما بلغ عليا مسير من سار الي البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول ان يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث الى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا الي معاونته على المخالفين عليه . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس الى أميرهم أبى موسى يستشيرونه في الامر فقام فيهم خطيبا وكان آخر خطبته أما اذا كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا

جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الاسنة واقطعوا الاوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة: فتكلمت رسل علي وأغلظت لابي موسي القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لاهل الكوفة يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه والله لان يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن اني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فنفر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وان يلجوا داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدؤا بظلم ولن ندع أمراً فيه صلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله : ثم ان علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتي أتى عائشة فقال أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة قالت أي بني اصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كمقصد عائشة فقال لهما القعقاع ماهذا الاصلاح قالا قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركاً للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمئة رجل الا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم ذلك الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على

رجل فان تركتموه كنتم تاركين لماتقولون فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. ولا أرى دواء لهذا الامر الا التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الامة وان أنتم أبيتم الامكابرة هذا الامر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثه الله في هذه الامة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا واياكم وايم الله اني لاقول هذا وأدعوكم اليه واني خائف أن لا يتم حتي يأخذ الله من هذه الامة التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل فان هذا الامر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالامور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل. فقال له القوم أحسنت وأصبت فان جاء عليّ بمثل ما قلت صلح الامر فرجع القعقاع الى على فاخبره فاعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح: ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلنّ غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عني أنفسهم: فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض ان اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح الا علينا فقال لهم ابن السوداء ان عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذاً من أنتم معه لايجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير

عما نكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون. لما وصل علي الى البصرة بعث الى القوم ان كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الامر فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل. قام السبئيون فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ماهذا قالوا اطرقنا أهل الكوفة ليلاً فقالا قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما فجئنا الا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتي يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان فى ذلك الوقت بدا من القتال وكانت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فانهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل ننعى ابن عفان باطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل انسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبى بكر

وعمار بن ياسر فقطعا عرضة الرحل واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة: وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان بوادي السباع غافله فقتله

قتل فى هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبدالله) وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الموقعة مر على بين القتلى فكلما رأى صرعي أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه انما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً. وبعد ذلك زار عائشة في البيت التى نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بان تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها انه والله ما كان بيني وبين علي فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندى على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت والله وبرت ماكان بيني وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها علي أميالا وسرح بنيه معها يوما

بعد انتهاء الموقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبدالله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف

بعضهم بازاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد ان كان ذلك الموقف فى نظارهم عظيما مهيباً

لا يمكننا ان نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نري كيف فهموا ان ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين امام يرجع اليه الامر في تحقيق هذه القضية واقامة الحد على من يستحقه . ان اعطاء الحق للافراد فى أن يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته او اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الاسلام واذا كانوا لا يرون لامامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين اولا للنظر فى أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى اقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الامة ودعوا الناس الى أمرهم من غير أن يكون لهم أمام يرجعون اليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت تبينت ولم يكن عند على بن ابى طالب من الاناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان: حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالامة خيرا أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الامر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه ان تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وان من الخطأ العظيم ان يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى الى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من

كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لايحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لان الاتفاق انما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لانفسهم على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لان تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وان كان هو ينكر ذلك انكارا تاماً وهو عندنا الصادق فى قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس انه لا يكفى لبراءة الانسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة من قراءته وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه ان يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والاناة مايعيد الخارج عليه الى حظيرته والكى لايكون الا آخر الدواء

امر صفين

لم يكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الا مقدمة لما هو أشد منها هولا وافظع امراً وهو الحرب فى صفين

انصرف على من البصرة الى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولا الى معاوية بن أبي سفيان يطلب اليه البيعة فشخص جرير الى دمشق وأنهى الى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفني أرواحهم : والشام مجمع اجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الامة الرومية التى لم تزل حافظة لشيء من

قوتها فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم أئتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه ولم يعمل أى عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير علي الا المسير والقتال . خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فخرج اليه بأهل الشام

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة . هناك قدم طلائعه امامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان في سهل صفين وتواقفت الجنود الاسلامية بعضها امام بعض

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون اليه الطاعة وهم بشير بن عمرو الانصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا علي معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يامعاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك واني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الامة وأن تسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال ان صاحبي ليس مثلك ان صاحبى أحق البرية كلها بهذا الامر في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا قال يأمرك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من

الحق فانه أسلم لك فى دنياك وخير لك في عاقبة امرك قال معاوية ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يا معاوية اني قد فهمت ما رددت : انه والله لا يخفي علينا ماتغزو وما تطلب انك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم ألا قولك قتل امامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير لئن أخطأت ماترجو انك لشر العرب حالا فى ذلك ولئن أصبت ماتمني لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما انت عليه ولا تنازع الأمر أهله : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة الارد شديد وأمرهم ايام بالانصراف وأتوا عليا وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذا الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعا فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك فبعث علي عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الارحبي وزياد بن خصفة وشبث بن ربعى وهو أحد الرسل فى المرة الاولى وربما كان حمقه سببا في عدم النجاح : لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال انا أتيناك ندعوك الى امر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين ان ابن

عمك سيد المرسلين أفضلها سابقه وأحسنها في الاسلام أثرا وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل : فقال معاوية كانك انما جئت متهددا ولم تأت مصلحا هيهات يا عدي كلا والله اني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وانك لمن المجلبين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لارجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات يا عدى قد حلبت بالساعد الاشد فقال شبث وزياد اتيناك فيما يصلحنا واياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع ما ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا واياك نفعه — وقال يزيد ابن قيس انا لم نأت الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وان نذكر ما ظننا ان لنا عليك به حجة وانك راجع به الي الالفة والجماعة ان صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفي عليك ان أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا فانا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة فاما الجماعة التى دعوتم اليها فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فانا لا نراها ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم انه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون انهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة فقال له شبث أيسرك يا معاوية أنك امكنت من عمار نقتله فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان

ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الاقوام وتضيق الارض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية انه لو قد كان ذلك كانت الارض عليك أضيق : وبذلك انتهت هذه السفارة التى لم يكن يظن أن تنتهى الا بمثل ما انتهت اليه لانه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً فى مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوا ابهامها مافى بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والاخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له علي أنت لا أم لك والعزل وهذا الامر اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك ان أبقيت على أحقرة وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدا لك وقال شرحبيل بن السمط ان كلمتك فلعمري ما كلامي الا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذى اجبت به قبل فقال علي نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر

فأحسنا السيرة وعدلا فى الامة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله نغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم اتانى الناس وانا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فان الامة لاترضي الا بك وإنا نخاف أن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى الاشقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الاحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلا غرو الاخلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً الا أنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأماتة الباطل واحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول انه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء ثم أنصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى ألا ان أمير المؤمنين يقول لكم اني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا الى حق وانى قد نبذت اليكم على سواء ان الله لايحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى امرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ أبتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى

اذا مضت سبعة ايام قال علي لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي

أصبحت الامة في أمر عجب　　　والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب　　　ان غداً تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف علي بجنوده أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشئوم لايزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عند مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به في ذلك الوقت الاشتر النخعي فقال له علي ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فذهب اليهم الاشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكرامه فأوخذ لا يعمد لكتيبة الا كشفها ولا لجمع الا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشتر في هجمته حتي وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

أبت لى عفتي وأبي بلائى　　　واقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالى　　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت　　　مكانك تحمدى أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار : وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسي المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى اذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الاشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يده بالرجال لما رأى من ظفره : وبيناهم في هذه الشدة الشديدة اذا بالمصاحف قد رفعت علي رءوس الرماح من قبل اهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علي ياعباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا اشر أطفال وشر رجال ويحكم انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بمافيها ومارفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا مايسعنا أن ندعي إلى كتاب الله عز وجل فنأبي أن نقبله وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله اذا دعيت اليه والا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان انه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك : ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الاشتر ليترك القتال فارسل اليه رسولا فقال الاشتر للرسول ليس هذه الساعة التي ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفي انى قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلنى فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتي ارتفع

الرهج وعلت الاصوات من قبل الاشتر فقال له القوم والله مانراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليه فليأتك والا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للاشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسعه الا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الاشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الاشعث هذا الحق ثم رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الاشعث ومن تابعه وانا قد رضينا أبا موسى الاشعرى فقال علي قد عصيتمونى في أول الامر فلا تعصونى الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسي لانه كان يخذل الناس عنه فأبوا الا اياه فاضطر على للسير على ماراوا

المحاضرة الثلاثون
عقد التحكيم — نتائجه — الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضي عليه علي بن أبى طالب ومعاية ابن ابي سفيان قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين

انا نتزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وان كان الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسي الاشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان علي أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلي المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على ما فى هذه الصحيفة وانى قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الا من والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا علي انفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وان توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط وان مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وان رضيا وأحب فلا يحضرهما فيه الا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً اللهم انا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة) : ويلى ذلك اسماء الشهود من الطرفين — ١٥ صفر سنة ٣٧

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين

وأنجادهم تسعون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها ولولا ان عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور : ومما يزيد الأسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وانما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لانه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الامر وشيعة معاوية تنصره لانه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون انه ينبغي لهم مبايعة من آوي اليه قتلته

يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ماليس لغيره من سائر الناس حتي أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتي كان يري أن ألاشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلا عنه ولماذا ؟ لانه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم انهم لم يدخلوا في الاسلام الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصا من ذلك واذا كان الرجل يري أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم الامر غمّاً الا انه لم يجد له انصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان اذا تكلم عن معاوية او كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به انسان ولا

ينظر ان الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلامية ومثله لا ينال الا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه اشياء لم ير على أن يتنزل اليها أمامعاوية فانه بدون ريب كان يري نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب وا كبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن عليا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية ثم كان يري النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر اليه بتلك العين التى كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى على يحطه عن تلك المنزله السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة.

وجد أمامه شبها تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) انه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتى ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على (٣) ان أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهانة

شخصان ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما الي طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل علي رءوسهم

من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا ان تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الامر شورى وكلا الامرين لا يرضى به علي : اما قتلة عثمان فلانه اذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن ان يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلانه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لاحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي

نتائج التحكيم

بعد ان كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الي دمشق أما جند علي فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتي مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو ابى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال لاحكم الا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للاشعث قومه من اليمن فمشي رؤساء بنى تميم فتنصلوا اليه

واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روي الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على الى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء مابرحوا من عسكرهم بصفين حتى فشافيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم أمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادي مناديهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذى كان رسول على الى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين الى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والامر شورى بعد الفتح والبيعة الله عزوجل والامر بالمعروف والنهى على المنكر : فبعث اليهم على عبد الله بن عباس وقال له لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج اليهم ابن عباس فاقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال مانقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلي الله عليه وسلم فقالوا له أماما جعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به ـ وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه حكم فى الزاني مئة جلدة وفى السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا فى هذا قال ابن عباس فان الله عز وجل يقول تحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين : وقالوا ان هذه الآية بيننا

أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضي الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك مادعوناهم الى كتاب الله فابوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الا من أقر بالجزية ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما أبيتم الا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وان يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وان أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال انا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال قالوا فخبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ادخلوا مصركم رحمكم الله : والخوارج يدعون انهم قالوا ان التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك والا فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبي المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم ان علياً كان اماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع من بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن

مرتكب الكبيرة كافر فاذاً يكون معاوية بغي على الامام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع ان تقضي بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصاً فالذين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه الا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء : فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة : أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج الي النظر فان ادعي ان له شبهاً فى نفس امامة الامام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال فى دين الله وانما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فان القاضي الذى ترفع اليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد فى أن السارق تقطع يده او لا تقطع وانما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فان قالوا ان التحكيم من على شك فى أمامته والشاك لايجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بامر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا أيضا لان صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمه انكاراً او تمسكاً بشبه فانه لاطريق أمامه الا ان يرفع الامر لقاض أو لمحكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه : وعلي الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت

أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان : والمتتبع لاحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتي صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها الا غاو في نظرهم والا فكيف يؤول فهم كانوا بالامس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون انه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث علي أربعمئة رجل عليهم شريح ابن هانيء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي امورهم وأبو موسي الاشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمئة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لايدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء واذا جاء رسول علي جاء أهل العراق الى ابن عباس فسألوه ما كتب اليك أمير المؤمنين فان كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه الا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لايعلم بما جاء به ويرجع لايعلم بما رجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام

المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان و بحثا فيما جاء الأجله وهو اصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسي أشهد — قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاية اولياؤه — قال بلى — قال عمرو فان الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى و بيته في قريش كما قد علمت فان تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فان لك بذلك حجة تقول اني وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولى اكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسي يا عمرو اتق الله فاما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الامر لآل أبرهة بن الصباح انما هو لاهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبي طالب واما قولك ان معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الامر فانى لم أكن لاوليه معاوية وأدع المهاجرين الاولين واما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لارتشى فى حكم الله عزّ وجل ولكنك ان شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال ان ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل علي انهما قد اتفقا على خلع المتنازعين

واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الامر شوري بين الناس يولون من رضوا ولم يبق الا اعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسي في كل كلام فتقدم أبو موسي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ايها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الامة هذا الامر فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامر أهلا ثم تنحي وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثني عليه وقال ان هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا — و يروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وان المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الاول لان هذه الخطبة علي فرض حصولها وأن الخديعة تمت علي أبى موسي لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لان الذى ثبته انما هو حكمه والذى يلزم الامة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ولم ينقل أحد ان أباموسي رضي فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بانه لا يؤدي الى نتيجة لان أبا موسي كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل الى ما يريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو

مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلايهمه الا أن يصل إلي مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان : قال المغيرة بن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال له يا أبا عبد الله أخبرنى عما أسالك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فانا قد شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتي تجتمع الامة فقال عمرو أراكم يامعشر المعتزلة خلف الابرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمراً فقال له اراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة الى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضي بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لان أقل مافى الحكم أن ليس لعلى امامة وصار الامر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فزادت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين

رأي على أنه لا بد له من معاودة الكرة الي معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فانه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لانهم كانوا يظنون ان علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه انسان فقال له ان الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم الا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب

الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور هذه الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة : ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبدالله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الامر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي اليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت : وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسي خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فان المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونخلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم الا ما أردتم فكنت أنا وانتم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أري ... مكان الهدى أوانني غير مهتد
وهل أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد

الا ان هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم

رشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للسير الى الشام وأصبحوا فى معسكركم ان شاء الله يوم الاثنين : وكتب الى الخوارج يدعوهم الى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا اليه (أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقدنا بذلك على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس يأمره أن يرسل اليه جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا الى ما أحببت . بلغ علياً وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا سر بنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام فلم يجد بداً من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل اليهم أن ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما انتم عليه من أمركم فبعثوا اليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها علي وهم يسمون فرفع راية

مع أبي أيوب الانصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن انه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج اليه على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحا الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فاذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلى الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفي لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد انفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم فأقاموا هناك أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا الا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك العسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط : وهو في كل يوم يلقى عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يثر ولا يحلى ضعف سلطان امامهم في أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع امامهم : أما حال أهل الشام مع

امامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل

كان مما يهم معاوية أن يستولي على مصر لانها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الامر لعلي ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلا سيا سياً خبيراً بالامور فاستقامت له الامور بمصر الا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصارى فبعث اليهم قيس اني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شيء علي معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه علي بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتابا لا يستبين مراده منه الا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأي قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جمله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة في اخراجه عن مصر فقال لاهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده بخربتى يجرى عليهم أعطياتهم

وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جواسيس بالشام فبعثوا اليه بالخبر فلهم قيساً وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبي قيس أن يقاتلهم وكتب الى على انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم واعطيائهم وقد علمت ان هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر اهون على وعليك من الذي أفعل بهم ولو اني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم اسود العرب فذرني فأنا اعلم بما أداري منهم — فأبى علي الا قتالهم وأبي قيس أن يقاتلهم وكتب اليه ان كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث اليه غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته والخروج من مصر فبعثوا اليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ماتصير اليه امورنا ولا تعجل بحربنا فأبي عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم صبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعلي وان علياً ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل اليهم سريتين الواحدة تلو الاخري ونصيب كاتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال مالمصر الا احد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الاشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب اليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب اليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الاشتر الى مصر بل مات بالقلزم ويقال انه سم فى شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على الى محمد بن أبى بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشتر إلى عملك وانى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً مني لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب اليك ولاية منه : ان الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقي حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة واكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله واياك على ما لا ينال الا برحمته)

كان معاوية فى ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له همّ الا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا اليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلي مصر عمر بن العاص فى ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب الى ابن أبي بكر (أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر : ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فاني لك من الناصحين) فكتب محمد إلي على يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج اليه محمد فى ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مال الأمم من جنود مصر فقتل من قتل وفرّ الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتي نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال انه أحرقه بالنار بعد ذلك : أما علي فلم ينجح فى اخراج الجنود لاغاثة مصر الاّ بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا الا قليلاً حتي بلغ علياً ما كان فأرسل اليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر.

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير الى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي فكتب الى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة : يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضب فى جحره والضبع فى وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا اليه راجعون ماذا منيت بكم عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا لله وإنا اليه راجعون.

ووجه معاوية سفيان بن عوف فى ستة آلاف للاغارة على هيت والانبار والمدائن فسار حتي أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتي الانبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على امرهم واحتملوا مابها من الاموال وعادوا الى معاوية فخرج علي في طلبهم فلم يلحقهم.

ووجه عبد الله بن مسعدة الي تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه اليه على جيشاً يقدمه المسيب بن نجية الفزاري فلحق أبن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديداً وانتهي الامر بان سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتي المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب الى اليمن وكان واليها عبيد الله بن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر اليه فر الى الكوفة حتى أتي عليا واستخلف علي صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله: وكان بسر عدوفاً أسرف فى قتل من رآه من شيعة على

هكذا كانت الحال في تلك الازمنة الثقيلة التي كانت الى الفوضي اقرب ومن أغرب مايروي أن ابن عباس وهو الساعد الاشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لان علياً اتهمه بمال أخذه ن مال المسلمين

المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته وأخلاقه — الحسن بن علي — مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور — النقود الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخوان الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لايخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لاينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل علي صاحبه الذي توجه اليه وأقبل كل رجل منهم علي المصر الذي فيه صاحبه . فأما ابن ملجم المرادي وكان عداده في كندة فخرج حتى أتي الكوفة ولم يخبر من بها من اخوانه شيئاً كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم علي يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل علي أباها واخاها

يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أزوجك حتى تشفي لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب قال هو لك مهر أما علي فلم أوك ذكرته لى وأنت تريدينني قالت بل التمس غرته فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ماجئت هذا المصر الا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر . ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتي خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادى الحكم لله ياعلي لالك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على علي فقالوا له ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده : وفي يوم الاحد ١٧ رمضان توفى بعد أن مضي على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر الا أياماً قضاها فى هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته

أما البرك بن عبد الله فانه قعد لمعاوية فى ذلك اليوم الذى ضرب فيه على فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف فى أليته ودووي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد . وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكيا وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته

فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرواً واراد الله خارجة

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى

(٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الاصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمرو رقية

(٦) امامة بنت أبي العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم فولدت له محمداً الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امريء القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من امهات شتي منهن أم هانيء وميمونة وزينب الصغري ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وامامة وخديجة

وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتي وكان النسل من ولده لخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل احوالهم هـذا السؤال : كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تيم بن كعب والثاني من بني عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الاسلام وعلو شأنه حتى اذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته في آخر عمره ولم يصف الامر لثانيهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ماهو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الادنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الاسلام ذلك الى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لابد لذلك من أسباب : اما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فانا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الظروف التي أحاطت به

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

الشجاعة ـ الفقه ـ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل : وقف المواقف المشهودة وخاض غمرات الموت لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ماعرف من شجاعته بياته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم

أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه او يؤثر فى نفسه ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفي مكانه يبارز الاقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الافاعيل وكان الناس يهابون مواقفته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلي الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه الى أن توفى عليه السلام كل هذا كسبه قوة فى استنباط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الاحكام ويرجعون الي رأيه اذا خالفهم في بعض الاحيان واكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التى جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه الى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف علي النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جواد الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مراماها واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء : وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الاعلى ونمابه الى مشهد النور الاجلى وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى باعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب و يبصرهم مواضع الارتياب و يحذرهم مزالق الاضطراب و يرشدهم الى دقائق السياسة و يهديهم طرق الكياسة و يرتفع بهم الى منصات الرياسة و يصعدهم شرف التدبير و يشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيراً

هذه الصفات العالية مع مامنحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها و يري بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقي الى الطير : وقال فوالله مازلت مدفوعا عن حقي مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلي الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا : وهناك طبيعة ثابتة فى الناس أنهم لا يميلون الى شخص يرى

لنفسه التفوق ومن يد الفضل وانما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم : جعله مايراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والاشياخ : روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الامور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً الا تخبرانى أى شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به أم أى حق رفعه الى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية اربة ولكنكم دعوتموني اليها وحملتموني عليها فلما أفضت الى نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما واما ماذكرتما من أمر الاسوة فان ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوي منى بل وجدت انا وأنتما ماجاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضي حكمه فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق وألهمنا وإياكم الصبر : وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأى علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الامر الى علي كان

تريد قتل عبيدالله بعد أن مضي على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيدالله الا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين. كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي على فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق: بويع وولاة الامصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء بها فاشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتي يتم أمره فلم يسمع لاحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتي خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبري فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة . أراد فى هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم انه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان: ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الي بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس علي اليمن وعبد الله ابن عباس علي البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له علي أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قادة كبراء قريش وعظماؤها فارهفوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة . كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء مايجعل رقابهم خاضعة له وعلى بحاسبهم على النقير والقطمير فى وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سببا في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب

الي مكة ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد علي عماله والأمة كلها معه وأما علي فكان معظم الامة عليه فضلا عن ان كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس. وعلي الجملة فان أكبر الاسباب في عدم استقامة الامر لعلي يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الاشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعد لها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الظروف التى هو فيها نظرة صائبة وجند جنداً لا يركن اليه وخصما قوى الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الالفة فلم ير خيراً لنفسه ولا لامته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه علي شروط رضيها الطرفان وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الاول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلي الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين. وهدأت الاحوال وسمي المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الرشدين

اصطلح المؤرخون علي تسمية الدولة الاولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون

شيئاً من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى احوالهم الاجتماعية سواء فى ادارة امورهم الداخلية أو فى حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الاسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على مافيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وماعرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ماليس فيهما عرفوا الاشباه والامثال وقاسوا مالا نص فيه على مافيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كاحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا فى الفتوي كان من المحتم عليه ان يتبع رأيهم وهذا ما يسمي فى عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني اكثر من أنه منفذ لاحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطانا دينياً كما يزعمون وانما هى سلطان أساسه الدين

لم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الاربعة من ثلاث أسر فابو بكر

من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بني عبد مناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لاتتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي

وكانت الناس تبايع الخليفة علي العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي لانه أباها لما عرض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور الا أنهم لم يكونوا علي درجة واحدة في ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الا بعد ان يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن ابى طالب ومن ماثلهم ، وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الامر فى المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار بعد ذلك خاصته : وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه : ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الا أنه لم يكن أحد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لان حياتهم كانت مبنية على المساواة

ولم يكن ينقص هـذا النظام البـديع الا شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف بينهم لان عـدم هـذا التعيين كان سببا من أسباب الفرقـة بـين على ومعاوية لان علياً كان يرى أن هـذا الحق لاهل المدينة وحدهم لايشركهم فى ذلك أهـل الامصار الاخري فمتي بايع أهل المدينة لواحـد تمت بيعته وليس لاحد بعـد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معـه من أهل الشام كانوا يرون غـير ذلك وأن البيعـة لاتتم الا برضا أهـل الامصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين . لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر النـاس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره ان يكون لعماله حجاب حتى انه أرسل لسعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة و بين رفع شكواهم اليه

القضاء

كان القضاء معتبرا من عمـل الخليفـة لان معناه فصـل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هـذا العمل بانفسهم ويستفتون فى الحكم ان كانت هناك حاجة الي الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هـذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ولـكنهم لم يتسموا باسم القضاة الا من عهد عمر بن الخطاب فانه بعث قضاة الى الامصار ووضع لهم انموذجاً يسيرون عليه واستمر الحال

على ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين : ومن أعظم ما كان لاولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لامراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة الى الامير أن يولى فلاناً قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة : وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاة ما كتبه على ابن أبي طالب الى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بادني فهم الى أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته الى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم اذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءاً وقد

لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص وهو الحديث عند غيره بذلك كانو يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوي ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم وكان ماذكرناه من أمر السنة سببا كبيرا من أسباب اختلافهم في الفتاوى والاقضية

لم يكن القاضي في أحكامه موكولا الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وانما كان موكولا الى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي والحال ماذكرنا أمر لابد منه ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكان القضاة كانوا نواباً للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الاحكام ولا أن صور الاحكام كانت تعطي للمحكوم له لان ذلك لم يكن ما يدعو اليه مادام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون

للتنفيذ لان من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ماقضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاة القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار لانا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بقتل قصاصاً أو جلد لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضي بعقوبة منها أو نفذها : وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لايامر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضا ان قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الامن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بان يقام فى مسجد حيه ويقال ان هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان فى نظرهم

أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والاقدام ويرون في الاحجام عاراً لا يمحي وكما حصرهم عمر رتب لهم الارزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين الا أنه لم يسو بين الجنود فى العطاء وقد سوى بينهم على بن أبى طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد ان كانت العرب تحارب فى جاهليتها بطريقة الكر والفر وهى ان يكر المحارب على خصمه ثم يفر ثم يكر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاما رأى قواد الجنود من المسلمين ان هذا النظام لا يصلح معه حروب الامم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لاحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه . وكان للجيش مقدمة تكون فى الامام وهى التى تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمني ويسرى أوجناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكان يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم فى الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتي لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الاوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتي يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم فانهم سائرون الى

عدو مقيم حامى الانفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة
حتي تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح
منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلايدخلها من اصحابك الا من تثق
به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا
بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب
بظلم أهل الصلح واذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم
ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض
من تطمئن إلى نصحه وصدقه فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك
فى بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من
أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا
امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس
والرأي من اصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول
ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد
ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت
به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة
ونكاية فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك واجمع اليك مكيدتك
وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتي تبصر عورة عدوك
ومقاتله وتعرف الارض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك
ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ)

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقوادوقليـلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسـل الى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه

وكانت هناك ايرادات ثابتة أوعادية وايرادات غير ثابتة : أما الاولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ماكان يوضع على الاراضي التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدى أهلها يؤخـذ منهم كأنه أجرة للارض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقدراً كما جعل عمر فى السوادوأحياناً يجعلونه حصـة شائعة ممايخرج من الارض : أما الاراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أوملكها المسلمون عنوة وأهلها لاتقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب فهـذه ارض عشر ومثلها الاراضي التى امتلكها المسـلمون عنوة وقسـمت بين الغانمين : والعشرهو عشر مايخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الارضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوافقال عمر فـكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قداقتسـمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأىفقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأى ما الارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو الاماتقول ولست أري ذلك

والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولابناء القوم ولابناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد على ان يقول هذا رأي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأي عمر فارسل الى عشرة من الانصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال اني لم أزعجكم الا لان تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو اي. معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ماأريد به الا الحق قالوا قل نسمع ياأمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم واني أعوذ بالله أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسري وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن احبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم: أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج فقالوا جميعا الرأى رأيك فنعما قلت ومارأيت ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ماينفقون به رجع أهل الكفر الى مدنهم : فقال قد بان لى الامر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج مايحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة فارسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فادت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر اذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشيء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأي عمر من الامتناع من قسمة الارضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لان هذا لو لم يكن موقوفا علي الناس فى الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا ياخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل. روى أبو يوسف القاضي في كتابه المرسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما ألجأك الى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل الى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما في السنة ولا تنقص عن إثني عشر: روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الابل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقد بينت

الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب الزكاة فيما دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده : وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الامام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضي منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري الى عمر أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيما دون المئتين شيء فاذا كانت مئتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلي عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مرّ عليه راجعاً في سنته فقال أعطني ألفاً أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت

فاستأذن عليه فقال من أنت قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وأني أشهد الله انى على دين الرجل الذى بعث اليك الكتاب

وقد اتبع المسلمون سنة عمر فى تمشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الاسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت فلقينى أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس قال فقال لى لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة الى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف الا انهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدينة والحضارة وكانت الامة العربية تغلب عليها اذ ذاك البداوة ولما جاء الاسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لانه نظر فرأي الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطاً او درهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الاوزان الثلاثة وهى ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لان كلا منهما = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧ . نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وعلى اخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله اكبر

الحج

كان من الاعمال الكبرى لامام المسلمين اقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه امراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الاحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان اكثرهم توليا لامر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانه حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً الا انه حصل خلاف فى السنة الاولى من حكمه فقيل انه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وابو بكر حج بنفسه مرة واناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى اناب عنه كل سنى خلافته لاشتغاله بما من الاضطراب الذى كان بينه و بين معاوية

كان هـذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيما وفائدة كبري فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض وان الخلفاء يجيئهم من الاخبار مالا يمكن ان يكون بواسطة الولاة

الصلاة

كانت اقامة الصلاة من اعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه او بواسطة نائبه وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره فلم تكن تقام الا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة ان كان او الوالى ولم يبلغنا انه تعددت المنابر فى البلد الواحد فى عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة فى الامة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء اسرى بدر فى ان يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان اكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . اما الخلفاء انفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يكتب شيء من الكتب فى ذلك العهد الا القرآن فانه جمع فى صحف فى عهد ابى بكر وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة ارسل بها الى الامصار ليكون كل مصحف اماما لاهل المصر الذى ارسل اليه . اما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب . وكذلك لم يكتب شيء فى العلوم. اما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم اساليبها والشرع يعتد انما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها واما العلوم الصناعية فان الامة كانت لا تزال فيها على بداوتها وان كان قد نبغ منها من امكنهم انشاء المدن ومسح الاراضي بالمران على ذلك لا بعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الاموية — معاوية وترجمته — انتخابه — حال الامة حين انتخابه — زياد

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش فى الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد : والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الاولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الاعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس الى الصلح فى ذلك اليوم ورهن لسدادها ولده أبا سفيان : وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الالفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبد المطلب فلم يكن هذان البطنان متعاديين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق فى المسائل التاريخية وانما كان يظهر فى بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحياء المتقاربة وقد أشرنا الى ذلك فيما مضي ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الاولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس الى الله أجابه من بني عبد شمس جمع

كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صدعنه كثير من أولئك الا أن بني هاشم و بني المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته: وكان يزاحم بني عبدمناف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش الا أنه لم يكن فيهم من بني هاشم الا أبو لهب: جاءت الحروب الاسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عدد قليل من بني عبد شمس وكان القائد الاكبر لقريش في بدر من بني عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم في أحد والاحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلا عظيما في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالبا محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفاله وتحببا اليه مالم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادي بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فسوى بين بيته و بين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن وفي ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الاسلام من رجالات قريش وذوي النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس باسلامهم وكان يقابلهم قائما فاتحا ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان

ابن امية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحقابهم يعيرون به فى مستقبل أيامهم

وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابا من بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين فى حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسنا ثم سيرهم الى ثغور الشام وكانوا كلهم فى شوق الى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للاسلام حتى يكتب لهم فى نصرته مايمحوا ما كتب عليهم فى مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبى سفيان فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الاربعة التى توجهت لفتوح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملا على احدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً الى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة وقوة التدبير والامانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفى عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولى على الكور عمالا من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهفوها بالطاعة

وعلى الجملة فان بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية الى سيادة فى الاسلام وقد قال عليه السلام (الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) فاتصلت له السيادتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبى العاص بن أمية وكان من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى

عشرة على الشكل الآتى

أميـة

حرب   أبو العاص

أبو سفيان   الحكم

١ معاوية الاول   ٤ مروان الاول

٢ يزيد الاول   ٥ عبد الملك   عبد العزيز   محمد

٣ معاية الثاني ٦ الوليد الاول ٧ سليمان ٩ يزيد الثانى ١٠ هشام ٨ عمر ١٣ مروان الثاني

١٢ يزيد الثالث ١١ الوليد الثانى

فقد تولى من الفرع الاول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدىء من اليوم الذي بويع فيه معاويه بيعة عامة فى ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل مروان الثانى ابن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ ﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في الاسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد اسلامه يكتب بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم : وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مدداً لاخيه يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت امرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الاردن : ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد دمشق وما معها : وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع علي بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لانه أتهمه بالهوادة في أمر عثمان وايواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان من وراء ذلك أن حاربه علي بن ابي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية امام أهل الشام وعلي امام أهل العراق ومازال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة الى معاوية وحينئذ اجتمع على

بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادي والاربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الاول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وانما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة: فلما قتل علي وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر اليه فبايعه في ربيع الاول سنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق الا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الامة ما عدا الخوارج

حال الامة عند استلام معاوية الامر

تولى معاوية أمر الامة وهي أقسام ثلاثة القسم الاول شيعة بني امية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الامصار الاسلامية. القسم الثاني شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالامر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر: القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين عن الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علي لان كلا قد ألحد على زعمهم في الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الامة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤنها وافاضة ثوب

الامن عليها : أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه وكانت غايته فى الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه تزل عنها الاقدام

كان الذى يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لانهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لانهم قوم غلوا فى الدين غلواً عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الامة ورأوا من واجبهم استعراض الانفس وأخذ الاموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الاشجعي معتزلا فى ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعا من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لاهل الكوفة والله لا أمان لكم عندى حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وان أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبى الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبى الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما ان أبالي اذا أرواحنا قبضت ... ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى المجرة والنسران عن قدر ... والشمس والقمر الساري بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه ... أن السعيد الذى ينجوا من النار

فلما قتل ابن أبى الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الاسدي فسار حتي قدم النخيلة فى ١٥٠ وانضم اليه فل ابن أبي الحوساء وهم قليل فقال معاوية لابي حوثرة اكفنى أمر ابنك فصار اليه أبوه فدعاه الى الرجوع فأبي فأداره فصمم فقال له يابنى أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه فقال ياأبت انا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني فرجع الى معاوية فأخبره فقال ياأبا حوثرة عتا هذا جداً ولما نظر حوثرة الي أهل الكوفة قال ياأعداء الله انتم بالامس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج اليه أبوه فدعاه إلي البراز فقال ياأبت لك فى غيري مندوحة ولى فى غيرك عنك مذهب ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثرة　　　فعن قليل ماتنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طييء فقتله فرأي اثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله : ثم توالت الخوارج حتى اخافوا بلاد العراق فرأي معاوية أنه لا بد من تولية العراق رجالا ذوي قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشتدون فى طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأى وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان واليا له على فارس وقتل علي وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطا فى استقدامه فأتي المغيرة زياداً وقال له ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن احد يمد يده الى هذا الامر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى

عنك معاوية فقال زياد أشر على وارم الغرض الاقصى فان المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أري أن تصل حبلك بحبله وتشخص اليه ويقضي الله : وكتب اليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل الى علي وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه مابقي عنده

وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقه بأبى سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب الى زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان اياه فلما علم بذلك علي كتب الى زياد يقول له (اني وليتك ماوليتك وأنا أراك له أهلا وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثا ولا تحل له نسباً وان معاوية يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل علي رأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفي مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان وان كان كثير من الناس لايعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد الى عائشة أم المؤمنين يقول لها : من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجراً فجاء الى بيت زياد وكلم أحد ابنائه فقال له يابني قل لابيك انني سمعت انك تريد الحج ولا بد من قدومك الى المدينة ولاشك انك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فان اذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله وان منعتك فاعظم به فضيحة

فى الدنيا فترك زياد الحج

وفى السنة الخامسة والاربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الاول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها ولما فى هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته فى حكم البلاد أحببنا ايرادها قال :

أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لاهل طاعته والعذاب الأليم لاهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون انكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من تركِكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله : ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة: عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امريء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً : ماأنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدماً واحراقاً . اني رأيت آخر هذا الامر

لايصلح الا بما صلح أوله لين في غير ضعف وشدة في غير عنف واني أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتي يلقي الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لى قناتكم . ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فاذا سمعتوها منى فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لماذهب من ماله فاياي ودلج الليل فاني لاأوتى بمدلج الا سفكت دمه وقد اجلتكم فى ذلك بمقدار مايأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياي ودعوي الجاهلية فانى لاأجد أحداً دعا بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي ولايظهر من أحد منكم خلاف ماعليه عامتكم الاضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته اني لو علمت أن احدا منكم قتله السل من بغضى لم اكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتي يبدى لى صفحته فاذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا علي أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا

واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمراً لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فاذا رأيتموني أنفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله وايم الله ان لى فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى

فقام اليه عبد الله بن الاهتم فقال أشهد أيها الامير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود . فقال الاحنف قد قلت فأحسنت أيها الامير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وانا لن نثنى حتى نبتلى فقال صدقت : فقام اليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى (وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخري وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد انا لن نصل الى الحق فيك وفي اصحابك حتي نخوض في الباطل خوضا

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتي بلغ الخبر الكوفة وعاد اليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلى فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فاذا فرغ أمهل بقدر ما يري أن انسانا يبلغ أقصي البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى انسانا الا قتله فأخذ ذات ليلة اعرابيا فأتى به

زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لى وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع وأقمت لاصبح ولا علم لى بما كان من الامير فقال أظنك والله صادقاً ولكن فى قتلك صلاح الامة ثم أمر به فضربت عنقه : وكان زياد اول من شدد أمر السلطان واكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتي يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط اربعة آلاف . وقيل له ان السبيل مخوفة فقال لا أعانى شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فان غلبنى فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد فى صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة : ووجه يوما بجينة بن كيش الاعرجي الي رجل من بنى سعد يري رأى الخوارج فجاء بجينه فأخذه فقال انى أريد أن احدث وضوء للصلاة فدعنى أدخل الى منزلى قال ومن لى بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتي به بجينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عنى فانكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال انك قد قلت قولا فصدقته بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس

يسألونه فقال ما كلكم استطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ما ترون : وكان زياد يبعث الى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن اتياني الا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يري رأى الخوارج فدعاه فولاه جنديسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مئة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتي أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتي مات

وفى سنة ٥٠ أضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة ابن شعبة فصار والى المصرين وهو أول من جمعا له فسار الى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتي أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدرى من جليسى ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما منا من حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتي صار الى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب: وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون فى معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فان غب البغي والغي وخيم

أن هؤلاء جموا فأشروا وأمنونى فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا لاداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ويل أمك ياحجر سقط العشاء بك على سرحان : وأرسل الي حجر يدعوه وهو بالمسجد فابي حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث اليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الاحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أولآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأى الا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا اكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق الى حجر فاتني به فان ابى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحبا أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة وانى علي بيعتى فامر به الى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا فأودعهم السجن واحضر شهودا شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين وأظهر ان هذا الامر لا يصلح الا فى آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبى تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود علي ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه الى معاوية فسير بهم حتي

انتهوا الى مرج عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانيـة منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئا الا صارت بنا الامور الى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الانصارية ترثي حجرا وكانت تتشيع

ترفع أيها القمر المنير تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا ياحجر حجر بني عدي تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديا وشيخا في دمشق له زئير
فان تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا الى هلك يصير

وتوفي زياد في سنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة اعلان حكم عرفي فان أخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعي الذي يقتصر على المسئوليـة علي المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليـه الاداريون

التخفيف آلام الجرائم وارهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك فى الغالب وقتية ، ومن ذلك وضعه العقوبات التى شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حيا ، ومن ذلك: عقوبته للمدلج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لاهل العراق وقد أفادت فى اصلاح حالهم لان الامان ساد وقل خروج الخوارج فى زمنه ولكنه ضحي في سبيل الوصول الى ذلك شيئا كثيرا والتاريخ انما يعطى الانسان صفة السياسة والحكمة اذا تمكن من اصلاح الفاسد بقليل من العسف لانقول ذلك هضما لحق زياد لانه يعتبر أقل ولاة العراق اسرافا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال انه لايحتجب عن طالب حاجة وان أتاه طارقا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن ابانه ولا يجمر لهم بعثا وهذه الاشياء الثلاثة متي وفرها الوالى على الامة وصدقها فيها لاتجد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين ان زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات الاقليلا لان علمهم بصدقه فى الايعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على مافيه من قسوة كانعهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً وذلك انهم قوم لا يصلحهم الا الشدة واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب واجرموا الى الامراء أو الخلفاء من غير اسباب مبينة واضحة

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح فى عهد معاوية — بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن فى الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال ان فلاناً يرى رأى الشيعة وان فلاناً يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان ويرون أن فى الاقامة الغبن والوكف وأن فى جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج فى عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التميمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان السلمى ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لانه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة اليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج فى هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من

ذلك شيئاً — ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب — قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم ثم قد صدق ذلك عندي جماعتكم: قالوا اله أما اجتماعنا في هذا المنزل فان حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع اخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد بأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في اهل الكوفة خطيباً فقال (أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذي واني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لى ان رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر الا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام ارادة الحجة والاعذار) فقام اليه معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمي لك أحد من هؤلاء القوم فان كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فان كانوا منا كفيناكهم وان كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ماسمي لى أحد منهم ولكن قد قيل لى ان جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أصلحك الله فاني أسير في قومي وأكفيك ماهم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه: فنزل المغيرة وأرسل الي الرؤساء وقال لهم ليكفني

كل امرئ من الرؤساء قومه والا فو الذي لا إله غيره لا نحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون وعما تحبون الى ما تكرهون فلا يلم لائم الا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والاسلام الا دلوهم على من يرون انه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا في احدي دور عبد القيس قام صعصعة ابن صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدى فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطاباً حسناً قال في آخره (ولا قوم أعدي لله ولكم ولاهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا امامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فايا كم أن تؤوهم فى داركم أو تكتموا عليهم فانه ليس ينبغى لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لى أن بعضهم فى جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فان كان حكي لى ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فان دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى محبس المغيرة اجماع اهل المصر على نفى من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ — شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة — وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها — أقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى — اذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فياليتني فيكم على ظهر سابح شديد القصيري دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم فيسقيني كأس المنية أولا
يعز علىّ أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد اذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف في حمس الوغى يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال ان هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأى فمن ترون أبعث اليهم فقام اليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال انك لا تبعث اليهم أحداً ممن تري حولك من أشراف المصر الا وجدته سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً ولا أري أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم منى فابعثني اليهم فانى أكفيكهم باذن الله فقال أخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيرهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى اذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم انسان ثم ان أبا الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة .

فعادوا الى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لا نزايلهم حتي يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع الى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل ان الله لايستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا مثلك انا مالم ندع المعركة فلم نهزم وانا متي عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنحن على حال حسنة حتي يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله ان لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن انت من وراء الناس درءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الارض الارض ياأهل الاسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفى اثنائه بلغ الخوارج أن جيشا من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار ان يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم الا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته فى ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقى معه نحو مئة رجل فعطف عليهم وهو يقول

ان الفتى كل الفتى من لم يهل   اذا الجبان حاد عن وقع الاسل

قد علمت اني اذا البأس نزل أروع يوم الهيج مقدام بطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتي ردوهم الى مكانهم الذى كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ فى آثارهم : قال المستورد لاصحابه ان الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى باصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد ان خدعه ولم يكن الا قليل حتي التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادي ياعباد الله الارض الارض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم باطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال اذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب أبي الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فاشرع المستورد الرمح فى صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهي امر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة : قال الشعبي ما ولينا وال بعد المغيرة مثله وان كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال : واقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حبا للعافية غير أنه لا يدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لاصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتديء أهل هذا المصر بقتل خيارهم

وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقي ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكروني لو قد جربوا العمال بعدي. قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبرئ وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر: وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لانه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاة العراق الاشداء عبيدالله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة اخرى وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن أدية وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ابن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن في الامم قبلنا فقد صرن فينا. (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين: فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترىء عليه الا ومعه جماعة من اصحابه فقام وركب وترك رهانه: فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد في الكوفة فاخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف تري قال أرى انك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل الى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلا بالاهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشا عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتي توفي معاوية

وفي مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متي بدأنا في تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا أراد أن يولي رجلا من بنى حرب ولاه الطائف فان رأي منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها فان أحسن الولاية وقام بما ولى قياما حسنا جمع له معهما المدينة فكان اذا ولى الطائف رجلا قيل هو في أبي جاد فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فان معاوية لم يحج بنفسه الا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية

الفتوح فى عهد معاوية

لم يكن فى الشرق على حدود بلاد الفرس الا فتوح قليلة والذي كان انما هو ارجاع الناكثين من أهل تلك البلاد الى الطاعة وغزا عبد الله ابن سوار العبدي الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان (١) مرتين وفي

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان

المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه . وغزا المهلب بن أبي صفرة الازدى ثغر السند فاتي بنة ولاهور (١) وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا فقال المهلب ما جعل هؤلاء الاعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان اول من حذفها من المسمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغوناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الاسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو اليها برا وبحرا أما البحر فكانت الاساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بامرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس فتحها جنادة بن أبى أمية الازدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما فى البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذى يغزو فى الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو

---

(١) مدينة بكابل

وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيما لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزوا معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابى فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم فى بعض الايام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فانشأ يقول

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق شتي فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تبطرنى ولا تخشعت من لاوائها جزعا
لا يملا الامر صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً اذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتي قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لابيه والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فاجرك الله فقال

فان يكن الموت أودي به وأصبح مخ الكلابى زيرا
فكل فتى شارب كأسه فاما صغيراً واما كبيرا

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية بسفنهم . وفى اثناء الحصار توفى أبو أيوب الانصارى خالد بن زيد وهو الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة الي الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان فى افريقية ففي سنة ٥٠ ولي معاوية عقبة بن نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في اهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دحلة مشتبكة فقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان فى اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على افريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم افريقية وأساء عزل عقبة واستخف به. وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون الى الان فان الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفيء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للان فانه ما ولى انسان عملا بعد رجل آخر الا اجتهد ان يسيء سمعته ويبين للناس انه لم يكن يحسن

أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالامور وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل مايمكن أن ينفعه ليرتبك فى ادارته حتى يكون للاول الاسم العظيم وحده والامة التى عندها مثل هذا الفكر العقيم لايمكن أن تنجح أو تسود

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على مافعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده باعادته الى عمله وتمادي الامر حتى توفي معاوية وسنبين لكم فى خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد الى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فانه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقى أبناؤهم وانت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فاحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة الى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني امية امر يزيد فاجابوا الى بيعته فأوفد منهم وفدا عليهم ابنه موسى فقدموا علي معاوية فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية علي البيعة ليزيد . فأرسل الى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعا وان الناس قد ابدع بهم خصلتان اذاعة السر واخراج النصيحة الى غير أهلها وليس موضوع السر الا أحد رجلين رجل آخرة يرجوا ثوابها ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لامر اتهمت عليه بطون الصحف ان أمير المؤمنين كتب الى يستشيرني في البيعة ليزيد وانه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالامر فأحري لك ان يتم لك ولا تعجل فان دركا فى تأخير خير من فوت في عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لاتفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقي انا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك فى البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وانك ترى له ترك ماينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ماتريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من امر الامة فقال زياد لقد رميت الامر بحجره اشخص على بركة الله فان اصبت فما لاينكر وان يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما تري ويقضي الله بغيب مايعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف

عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه الى معاوية يشير بالتؤدة وان لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له انى قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدي وقد رأيت أن اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن اقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان الى معاوية بذلك فاعاد اليه الجواب بذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد الرحمن بن أبى بكر وقال ما الخيار اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب الى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وان يوفدوا اليه الوفود من الامصار فكان فيمن اتاه محمد بن عمر بن حزم من المدينة والاحنف بن قيس في وفد اهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى امر امة محمد ثم ان معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت الوفود عنده اني متكلم فاذا سكت فكن انت الذي تدعو الى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما امر الله به من طاعة ولاة الامر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته

فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين انه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا في العاقبة والايام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من افضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ اليه ونسكن في ظله : ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للاحنف بن قيس ماتقول يا أبا بحر فقال نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلمه لله وللامة رضا فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة وانما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوسق له أكثر الناس وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار الي الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من احق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما اظن قوماً بمنتهين حتي تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم انشد متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطعني وانطلق
انك ان كلفتني مالم أطق ساءك ماسرك مني من خلق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية الى مكة وقضي بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على ان يكون

الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لارحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال له ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف احداً فارتضي الناس ابا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قال فاصنع كما صنع أبو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا بني ابيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فاني احببت ان أتقدم اليكم انه قد أعذر من انذر اني كنت اخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فاحمل ذلك واصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على احد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله واثني عليه ثم قال ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا علي اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة ثم الي الشام ويروي ان ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على اني ادخل

فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها

ونقول ان فكر معاوية فى اختيار الخليفة بعده حسن جميل وانه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم الاختيار فأحسن مايفعل هو ان يختار الخليفة ولى عهده قبل ان يموت لان ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الامة من جور امامها وقد فعل معاوية مايظهر معه أنه لم يستبد بالامر دون الامة فطلب وفود الانصار فحضروا عنده واجابوه الى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذى ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الامة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعة أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لاجرم ان كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التى سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس انه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن فى الاسلام سنة الملك المنحصر فى أسرة معينة بعد ان كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا ان هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو فى الغالب الى انتخاب غير الافضل الاليق من الامة وتجعل فى أسرة الخلافة الترف والانغماس فى الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس : أما رأينا في ذلك فان هذا الانحصار كان أمرا حتما لا بد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فانه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة واذا انضم الى ذلك اتساع المملكة

الاسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع اليهم الانتخاب فان الاختلاف لابد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فانهم تنافسوا الامر واهلكوا الامة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا لها باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين ان أعظم من ينتقد معاوية فى تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الامر فى آل على ويسوقون الخلافة فى بنيه يتركها الاب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم الى غيرهم والنتيجة ان ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الاسلامية

مقارنة الحكم فى عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

ان الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال فى عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماما يأخذ كل انسان ماله ويعطى ما عليه فان تأخر فى واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدى الميل لم تكثر بينهم الاختلافات فى الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولا يخرجه عن حقيقته التي تدعوا الناس الي التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فان الامة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا

بها شديدة قاهرة حتى سهل اهراق الدماء ألا ترون الى زياد وما كان يفعله فانه قتل ذلك الاعرابى الذي أخذ مدلجا مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال ان في قتلك صلاحا للرعية . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا لينا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن انها تصلح القلوب وانما تخفف الالم عن الامة تخفيفا وقتيا

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى أمره وكان يعلم يقينا أن هذه الاقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندرى ماالذى حمله على أن جعل ذلك فرضا حتما فى كل خطبة كانه ركن من أركانها لاتتم الا به

(١) من المحدثات الجميلة التى حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة الي البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعا حتى اذا وصل الي أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالاول وبذلك كانت تصل الكتب الى الامراء والعمال في اسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة بريداً . وروي ياقوت فى معجم البلدان أنه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم لان بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فاحضرهم الملك واراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فامر

أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل بريد أي قطع فعرب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت انه روي هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر

(٤) معاوية اول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وانما اتخذه بعد أن كان ما كان من ارادة الخارجي قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمئة الف درهم وكتب له بذلك الى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المئة مئتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لان ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر انه كان كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الانصاري ثم أبو ادريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

تزوج (١) ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيرا (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخته

فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادي الثانية وكان يزيد ابنه غائبا فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى وأدى اليهما وصيته الى يزيد وكان فيها (يا بنى انى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مئة الف سيف وانظر أهل الشام فليكونو بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الي بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم واني لست أخاف أن ينازعك فى هذا الامر الا اربعة من قريش الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابى بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن على فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . واما ابن ابى بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت)

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ ابريل سنة ٦٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد ألا انه قد مات وهذه اكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج الى يوم القيامة فمن كان يريد يشهده فمند الاولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر الى يزيد فقال فى ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا فى كتابكم قال الخليفة أمسي مثبتاً وجعا
ثم انبعثنا الى خوص مزممة نرمى الفجاج بها لا نأتلى سرعا
فمادت الارض أو كادت تميد بنا كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شرف توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودي المجد يتبعه كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقي الغمام به لو قارع الناس عن احسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره نصلى عليه

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الاول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة — حصا
مكة — الفتوح فى عهد يزيد — بيته ووفاته

﴿ يزيد الاول ﴾

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأمه ميسون بنت بحدل ول
سنة ٢٦ ﻫ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى فى حجر الامارة ولم
شب فى خلافة أبيه كان يرشحه للامارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائ
وأرسله فى الجيش الذى غزا القسطنطينية لاول مرة وكان مغرما بالص
وهذا مما أخذه عليه الناس اذذاك لانهم لم يكونوا فارقوا البداوة العرب
والجد الاسلامي بعد

﴿ كيفية انتخابه ﴾

عهد اليه ابوه بالخلافة من بعده بعد ان استشار فى ذلك وفود الامص
فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة الا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسي
ابن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يك
ليزيد هم الا مبايعتهم له فأرسل الى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أم
المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمرو بن الزبير أخ
ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظع به و
عليه فأرسل الى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيع

واخبره بموت معاوية استرجع وترحم علي معاوية وقال أما البيعة فان مثلى لايباع سراً ولا يجتزي بها مني سرا فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحدا فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال انى عائذ بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحج بافاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن على وأخذ معه بنيه واخوته وبني أخيه الا محمد بن الحنفية فانه ابى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فانه قال اذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لايتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قدلزم جانب الكعبة فهو قائم يصلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولايزال يشير عليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لان اهل الحجاز لايبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا الى الحسين يستقدمونه ليبايعوه فكتبوا اليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذى اقتصصتم وقد بعثت اليكم بأخي وابن عمى وثقتى من أهل بيتى

مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم فان كتب إلى انه قد اجتمع رأي ملئكم وذوى الحجي منكم على مثل ماقدمت به رسلكم أقدم اليكم وشيكا ان شاء الله فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله و كتمان أمره واللطف فان رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان ابن بشير الانصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه : ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية . ثم قال انى لاأقاتل الا من يقاتلنى ولاأثب على من لايثب على ولاأنبه نائمكم ولاأتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي لا اله الا هو لاضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ولا معين أما انى أرجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له انه لا يصلح ما ترى الا الغشم ان هذا الذى انت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب الى من أن أكون من الاعزين فى معصية الله ونزل : فكتب ذلك الرجل الى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد

الله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد الى الكوفة وخطب في أهلها فقال (أما بعد فان أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم وفيئكم وامرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم امره ومنفذ فيكم عهده فانا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالاخ الشفيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال اكتبوا الى الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم الى برىء ومن لم يكتب لنا احداً فليضمن لنا في مافي عرافته ان لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء وسير الي موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهاني بن عروة المرادي فاجاره متكرها وصارت الشيعة تختلف اليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هاني فاستقدم هانئا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني وماذاك فقال ياهاني ماهذه الامور التي تربص في دارك لامير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى لك وقد اراد هاني أن ينكر فلم يجد الى الانكار سبيلا

فطلب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلماً فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يامنصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل الى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الاشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وامره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الاشعث ان يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الاشراف وأبقي عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر علي الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتي لم يبق مع ابن عقيل في المسجد الا ثلاثون رجلا فحار في أمره اين يذهب واختفي فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل اليه محمد بن الاشعث فجاءبه فقال مسلم لابن الاشعث اني أراك تعجز عن اماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فانهم اصحاب ابيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الاشعث : ولما جيء بمسلم الى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانى بن عروة المرادى

أما أمر الحسين فانه لما عزم على المسير الى الكوفة جاءه عمر بن

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني انك تريد العراق واني مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الاموال وانما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرنى ماأنت صانع. فقال قد أجمعت المسير في أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أعيذك بالله من ذلك خبرنى رحمك الله أتسير الى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك فقال الحسين فانى أستخير الله وأنظر مايكون : ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال ياابن عم اني أتصبر ولا أصبر اني أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم اقدم عليهم فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولابيك بها شيعة وأنت عن الناس فى عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعاتك فاني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية. فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فاني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه فلم يفد كلامه شيئا : ثم سار بأهله وأولاده

فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله الحسين عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء : ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله الا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الامان له ويسأله الرجوع فأبى ونم على وجهه فقابله عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام أن تنتهك أنشدك الله فى حرمة قريش أنشدك الله فى حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أميه ليقتلنك ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً والله انها الحرمة الاسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية فابي الا أن يمضي

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله الا ما جعت من مكانك فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثارنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله الا ما انصرفت فوالله ما تقدم الا على الاسنة وحد السيوف ان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأيا فأما على هذه الحال التى تذكر فلا أري أن تفعل فأبى أن يرجع : ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك علي الهدى فقد جئتكم فان تعطوني

ماأطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم واذلم تفعلوا أو كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه فلم يجيبوه بشيء فى ذلك ثم قال له الحر انا أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتي نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ماتريد فقال له أما والله لو غيرك من العرب يقولها ماتركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكني والله مالى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن مايقدر عليه. ثم صار الحر يراقبه حتى لايتمكن من الانصراف الي المدينة فسار الحسين يتجه الى الشمال حتي وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الى الحسين رسولا يسأله ماالذى جاء به فقال الحسين كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما اذ كرهوني فاني أنصرف عنهم فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال:

الآن اذ عرضت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا فعل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء: وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع الى المكان الذى خرج منه وليس بصحيح انه عرض عليهم أن يضع يده فى يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لايقبله الحسين مهمايكن من الامر فلم يكن الا القتال وفى عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذى لم يكن فيه أحد من أهل

الشام وهذه الفئة القليلة الحسين ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن الا قليل وقت حتي قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها الى ابن زياد ومعها بنات الحسين واخواته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فامر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان الى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضي من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الامر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فادخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ثم قرب اليه على بن الحسين وجهزهن بعد ذلك الى المدينة وقال لعلى يا بنى كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التى اثارها عدم الاناة والتبصر في العواقب فان الحسين بن على رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وأهم صحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه

وا كثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمني في آخر حياته الخلاص منهم : أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار الى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه هل كان الا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بانهم شيعة على بن أبي طالب وعلى الجملة فان الحسين اخطأ أخطأ عظيما في خروجه هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها الى يومنا هذا وقد اكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها : غاية مافى الامر ان الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يذم أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع الى ربهم يحاسبهم على مافعلوا : والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهى انه لاينبغى لمن يريد عظائم الامور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه الا اذا كان معه من القوة مايكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما انه لابد أن تكون هناك اسباب حقيقية لمصلحة الامة بان يكون هناك جور ظاهر لايحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمل أما الحسين فانه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند اظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هى فى نظرنا أدهى واشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الالهى وهى التى حرمها عليه السلام كما حرم ابراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيها القتال فانتهاك حرمة احداها من الشرور العظيمة والمصائب الكبري فكيف بانتهاك حرمتهما معاً فى سنة واحدة

أما حادثة المدينة فانه فى عهد امارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها أوفد الى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وعبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلا عابداً سيداً مئة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فاعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر ابن الزبير مئة الف فلما قدموا الى المدينة قاموا فى أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الانصاري الى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم انكم لا طاقة لكم باهل الشام فلم تجد نصيحته نفعاً فعاد عنهم وحينئذ قام هؤلاء الثائرون وحصروا من فى المدينة من بنى أمية فى دار مروان فكتبوا الى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذى فى سجيتى فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادع القوم ثلاثاً فان اجابوك والا فقاتلهم فان ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا فى حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار الا بعد أن عاهدوهم ان لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدواً وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادى القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا استطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدواً فانتهره وقال والله لولا انك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ماعندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت الى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال

ايه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأى رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال ان أمير المؤمنين يزعم انكم الاصل وانى اكره اراقة دمائكم واني اؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا المحل الذى بمكة وان ابيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جداً ولكن انتهي بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والاموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم واهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلى بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣

وأن الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية لهم خليفة منهم على أمرهم أم حمل بقية الامة على الدخول فى أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الامصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد من الجنود الاسلامية . انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فانه كان من الممكن أن يأخذهم

بالحصار فان المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال أن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لانه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين : بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لاباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وانا نعوذ بالله من الرءوس التي اذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل

حصار مكة

وثالثة الحوادث التي عظم تبعتها على عبد الله بن الزبير حصار مكة فان مسلما لما انتهى من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند الى مكة فقدمها لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفى الخارجى لمنع البيت : فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً انكشف فيها أصحابه فعاد راجعاً الى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى اذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الاول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال : هذه ثلاث حوادث كبرى داخلية حصلت فى أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث ومن آثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل ان الذى يتحمله جزء

صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وانما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لهم النصر

الفتوح فى عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار اليها ولما وصل الى القيروان قبض على ابي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذرارى والاموال ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الي بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقري كثير فقصد مدينتها العظمي واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الاسلامية حتى هزمتهم ثم رحل الى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومى اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الادنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر فى جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الاقصي وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا

هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفا منه ولما وصل الي مدينة طبنة و بينها و بين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها فى نفر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه كان فى الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم فى أيام أبى المهاجر فلما جاء عقبة وأساء الى أبى المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة فى أن ينضم اليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحي هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان فى القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر الى مبارحة القيروان والمسير الي برقة والمقام بها أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والذرارى من المسلمين واستولى على أفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لاربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣)

توفى يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة

خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد
ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله
وكان أرمى العرب وكان له من الاولاد عبد الله الاصغر وعمر وأبو بكر وعتبة
وحرب وعبد الرحمن لامهات أولاد شتى

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير — حال الشام — مروان الاول — عبد
الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

٣ ﴿ معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير ﴾

بعد موت يزيد كانت بيعتان احداهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية
بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنه احدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة
بعد موت أبيه الا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس
فحمد الله واثنى عليه ثم قال (أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل
عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى
فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى
مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة

ير من نفسه القدرة على لم شعثها واصلاح أمرها

أما ابن الزبير فان يزيد مات وحضين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحضين بعث الى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الامر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام فان هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لايختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له انا لاأهدر الدماء والله لأرضي أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحضين يكلمه سرا وهو يجهر ويقول والله لاأفعل فقال له الحضين قد كنت أظن لك رأيا وأنا أكلمك سرا وتكلمني جهرا وأدعوك الى الخلافة وأنت لاتريد الا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل الى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد

هذا حال الشام لاامام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال ياأهل البصرة انمهاجرنا اليكم وذارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم ومايحصي ديوان مقاتلكم الا سبعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة ألف وماكان يحصي ديوان عمالكم الا تسعين ألفا ولقد أحصى اليوم مئة وأربعين ألفا وماتركت لكم قاطبة من أخافه عليكم الا وهو في سجنكم وان يزيد قد توفي وقد اختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا

ترضونه لدينكم وجماعتكم فانا أول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وان كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضوا حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك نهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان و يقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه الى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمرو سيد الازد فأجاراه حتى هرب الى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الامارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميراً وكتب أهل المصرين الى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق الا الشام

حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك ابن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعو له وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي : وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة

لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالداً ابني يزيد لانهم قالوا انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان الى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده ويذم ابن الزبير وانه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له ان قرأ الضحاك كتابي على الناس والا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو الى ابن الزبير وكلب تدعو الى بني أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية الى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان يطلبه فقال الشابان لزفر

أنج بنفسك فانا نحن نقتل فمضي وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك

أريني سلاحي لا أبالك انني | اري الحرب لا تزداد الا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه | مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب | اذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلاً | ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعي على دمن الثرى | وتبقي حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا | وتترك قتلى راهط هي ماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط | لحسان صدعاً بيناً متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا | ومقتل همام أمني الامانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه | فراري وتركي صاحبي ورائياً
عشية أعدو بالقران فلا أري | من الناس الا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد ان أسأته | بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا | وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبن غارتي | تنوخاً وحيي طيبيء من شفائيا

ولما تم الامر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد الى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان فى سلطانه فانه توفي فى رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبا له ومدبراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب الى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فانه أشار عليه ان يطلب الخلافة لنفسه لانه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الامر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام ومصر لم يتجاوزهما حتي مات وولى أمر الامة من بعده ابنه

٥ (عبد الملك)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلا حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ماذاكرت أحداً الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك فانى ماذاكرته حديثا الا زادنى فيه ولا شعراً الا زادنى فيه

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال فى البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب فان الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو الي آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل

فتلقى الامر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد الى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فاذا فرغ من الجزيرة توجه الى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير الى العراق فسار حتى اذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا انفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب الا اذا قاموا للمطالبة بثاره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً الى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥هـ فخرجوا حتى اذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً فى أهل الشام فقال ان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان ابن صرد ألا وان السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الازدى وعبد الله بن وال البكرى ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبى عبيد

الثقفى وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٦ فأخرج عنها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذى أرسله للاخذ بثار الحسين ولقبه بالامام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي فى عالم الوجود كان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم ابن الاشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل اليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الامر فقالوا له ان المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه اليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية الى ابن الاشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي الى إبراهيم ابن مالك الاشتر) فقال ابراهيم قد كتبت الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب الى فلم يكتب الى الا باسمه واسم ابيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال ابن الاشتر فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر ابراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب فى التاريخ الذي بيناه ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال الى أمصار الكوفة وكان من أهم الامور لديه انتخاب جيش يوجهه الى قتال ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلاً ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث ثم دخلت فى بيعته البصرة

وكان عمل المختار سببا لتغير ابن الزبير على محمد ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فابوا عليه فحبسهم فأرسل اليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج الى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بداله فعاد الى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب الى الطائف وأقام بها

ثم ان المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم ابراهيم بن الاشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد ان ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشتر العمال الى البلاد الجزرية

بعد أن تم الامر للمختار ولى ابن الزبير اخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) — وأشار نحو الشام — (ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض — وأشار نحو الحجاز — (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة — وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من اهل الكوفة وهم الذين ليسوا

راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعه أشراف المصرين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قابل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ماوقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

ان من أعجب العجائب عندي　　قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم　　ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا　　وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حيث يقول

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه　　بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك الى العراق فبلغ خبره مصعبا فتجهز له وجعل على مقدمته ابراهيم ابن الاشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وان الأُولى بالطف من آل هاشم ... تآسوا فسنوا للكرام التأسيا

ومازال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالا من قبله . قال بعض الشعراء في مقتل مصعب

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب ... فمات كريماً لم تذم خلائقه

ولو شاء أعطي الضيم من رام هضمه ... فعاش ملوماً في الرجال طرائقه

ولكن مضي والبرق يبرق خاله ... يشاوره مراً ومراً يعانقه

فولى كريماً لم تنله مذمة ... ولم يك وغداً تطبيه غمارته

بذلك لم يبق خارجاً عن سلطان عبد الملك الا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً الى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار اليه في جمادى الاولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الامر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان الى الحجاج وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا اليسير ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وان قلت كنت على حق فلما أدهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال

ياأماه أخاف انقتلني أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى : قالت يابني أن الشاة لاتتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيي والذى خرجت بهدائبا الى يومي هذا ماركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكنى أحببت أن اعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظرى ياأماه فاني مقتول يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الامر الى الله فان ابنك لم يتعهد ايثار منكر ولاعملا بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أومعاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندى من رضاربى أللهم لاأقول هذا تزكية لنفسي ولكنى أقوله تعزية لامي حتي تسلو عنى فقالت أمه لارجوأن يكون عزائي فيك جميلا ان تقدمتنى احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتي أنظر الي مايصير اليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لى قالت لاأدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لانه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الامر لعبد الملك في جميع الامصار الاسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقي الحجاج والياً على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين فسار الى الكوفة فى اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فاجتمع اليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن

يحصبه ثم كسف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة انى لارى رءوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها

وكاني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحي ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدي زيم (١)   قد لفها الليل بسواق حطم (٢)

ليس براعي إبل ولا غنم   ولا بجزار على ظهر وضم (٣)

ثم قال

قد لفها الليل بعصلبي (٤)   أروع (٥) خراج من الدوى (٦)

مهاجر ليس بأعرابي

وقال

قد شمرت عن ساقها فشدوا   وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد (٧)   مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

اني والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٨) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء (٩) وفتشت عن تجربة وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم (١٠) عيدانها فوجدني

---

(١) يعنى فرسا او ناقة (٢) الحطم الذى لا يبقى من السير شيئا (٣) الوضم كل ماقطع عليه اللحم (٤) الشديد (٥) ذكى (٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دويا بالليل ويريد بها الفلاة الشديدة (٧) شديد (٨) واحدها شن وهو الجلد اليابس فاذا ضرب به نفرت الابل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٩) الذكاء حدة القلب (١٠) مضغها لينظر ايها اصلب

أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي لانكم طالما أوضعتم (١) في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لاحزمنكم حزم السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) واني والله ما أقول الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة واني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه: ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين الي من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئا فقال الحجاج اكفف ياغلام ثم أقبل علي الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا هذا أدب ابن نهية (٢) أما والله لاؤدبنكم غير هذا الادب أو لتستقيمن اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبق أحد في المسجد الا قال على أمير المؤمنين السلام. ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتي أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الامير انى من الضعف على ماترى ولى ابن هو أقوى على الاسفار منى فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الامير قال لا قال هذا عمير بن ضابيء البرجمي الذى يقول أبوه:

(١) الايضاع ضرب من السير (٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

همت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ان في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين ياحرسي اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فير تحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الاسدي

تجهز فاما أن تزور ابن ضابيء   عميراً واما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما   ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

فاضحى ولو كانت خراسان دونه   رآها مكان السوق أوهي أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة اصلاحاً حقيقيا أبداً وانما تضع على المرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم الى هذه الذلة يجيئهم الحجاج في بضعة عشر راكباً وفيهم الاشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتي.

وبعد ذلك ذهب الى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فاتي برجل يشكرى فقال أيها الامير ان بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج

الحجاج حتي نزل رستقاباذ فى أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخا فقام فى الناس فقال ان الزيادة التى زادكم ابن الزبير فى أعطياتكم لست أجيزها فقام اليه عبد الله بن الجارود العبدى فقال انها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتي قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برءوسهم الى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف الى البصرة

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجا وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج الى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز اليهم جندا كثيفا فجهز عشرين ألفا من البصرة ومثلهم من الكوفة وجد في ذلك وشمر وأعطي الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يري رجلا تذكر منه شجاعة الا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الاشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس ان الامير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم وأباد أخياركم فاياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا الى معسكركم فعسكروا به مع الناس فعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الاسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتي دخل في بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلدا بعث اليه عاملا وبعث معه أعوانا ووضع البرد

فيما بين كل بلد وبلد وجعل الارصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل
مكان مخوف حتي اذا حاز من أرضه أرضا عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس
الناس عن الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلاده
حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها ثم نتعاطى في العام المقبل
ماوراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من ارضهم حتى نقاتلهم آخر
ذلك على كنوزهم وذراريهم وفى أقصي بلادهم وممتنع حصونهم ثم لا نزايل
بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب الى الحجاج بما كانو برأيه فكتب اليه الحجاج
اما بعد فان كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرىء يحب
الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد اصابوا من المسلمين
جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم فى الاسلام عظيما لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن
أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخي النفس عمن أصيب
من المسلمين انى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكن
رأيت أنه لم يحملك عليه الا ضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به
الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال في
كتاب آخر ان لم تفعل فان اسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وماو
فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس واخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشار
أيمضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج
وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث الي رتبيل فصالحه و
من سجستان الى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق و
يديه أعشى همدان يقول

شطت نوي من داره بالايوان ... ايوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان ... ان ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان ... أمكن ربي من ثقيف همدان
يوما الى الليل يسلي ما كان ... انا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبيء من قحطان ... ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الارنان ... فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فانهم ساقوه كاس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض انا اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين . ولما بلغ الحجاج خبره بعث الى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود اليه فهاله الامر وبادر بارسال الجنود الشامية اليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود اليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الاشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الاضحي سنة ٨٧ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الاشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله اليها في آخر ذى الحجة سنة ٨١ . ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثي على ركبتيه وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوي قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل

منهم عدد وافر فمضى ابن الاشعث الى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتي نزل دير قرة وخرج ابن الاشعث حتي نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وان أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فانا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مئة يوم وكانت نهايتها فى الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٣ فقيه هزم ابن الاشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادي المنادى من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج انى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر. فقال أخادعى أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الارض وأكفر من فرعون ذي الاوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو امانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له انه لحق بقتيبة فأرسل اليه يأمره أن يبعث اليه بالشعبى

فأرسله فلما قدم سلم عليه بالامرة ثم قال أيها الامير ان الناس قد أمرونى أن أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام الا حقاً والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وماجرت اليه أيدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا : فقال له الحجاج أنت والله أحب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف : فلما مشي قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا : فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الامير خلفا : قال انصرف يا شعبي : وجيء اليه بأعشي همدان فقال ايه يا عدو الله انشدنى قولك بين الاشج وبين قيس باذخ : قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها

أبي الله الا أن يتمم نوره ... ويطفيء نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن ... ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة ... من القول لم تصعد الى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلي الجملة فان فتنة ابن الاشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الاشعث فقد تقلبت به الاحوال وانتهى أمره إلى أن توجه الى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل اليه ابن الاشعث و يتوعده ان لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الاشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرءوس إلى الحجاج

مضي على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لايخشون عاقبة ولا يراعون لله في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا تخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فانهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف و يكرهوها على الطاعة اكراهاً من غير أن يتقربوا الى قلوبها بشيء مما تحبه

من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج في هذه المدة لتكون صورة الامة كلها ممثلة امام أنظاركم في ذلك العهد

المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام الى مكة لقتال ابن الزبير فى عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الازرق الحنفى أن يذهبوا الى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه عرفوه بأنفسهم فأظهر لهم انه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل الى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو متبذل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول في الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول فى عثمان الذي أحمى الحمى وآوي الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو امام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة فان أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وان أنت أبيت الا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت امامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا. فقال ابن الزبير ان الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر

الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الاحياء بسب الأموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجادّ فى المحاربة والمتبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنباً وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فان كانا منهم دخلا فى غمار الناس وان لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذى دعوتم اليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم الا التصريح والتوقيف ولعمرى ان ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا الى من عشيتكم هذه اكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشى راحوا اليه فخرج اليهم وقد لبس سلاحهُ وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنفر بعضهم الى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة الى البصرة وطائفة الى اليمامة فكان ممن سار الي البصرة نافع ابن الأزرق فى أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضي بهم الى الاهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحداً ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفيء : ولم يزل الخوارج على رأى واحد حتى ظهر من نافع بن

الأزرق القول بإكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله بن اباض المري : أما ابن أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون ان عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرم مناكحتهم وموارثتهم لأن معهم التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبد الله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فإنه قال اعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الاقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وأزعم أن مناكحهم وموارثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الاسلام وان حكمهم عند الله حكم المشركين : وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق واباضية أصحاب ابن أباض وبيهسية أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب الى المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا الى الأحنف بن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو الا ليلتان وسيرتهم ما ترى فقال الأحنف ان فعلهم في مصركم ان ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في

جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل فى المعركة ابن عبيس ونافع ابن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر الغدانى وولى أمر الخوارج عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بنى يربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل فى آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميرى فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن حتى أمسوا وقد كره بعضهم بعضاً وملوا القتال فانهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم فى حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز: ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك انى فى الحياة لزاهد ... وفي العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم

وظلت شيوخ الازد فى حومة الوغى ... تعوم وظلنا فى الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا ... يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى ... أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا الامر الخوارج الا المهلب بن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب فأجابوه الى ما شرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتي انتهوا الى منزل من الاهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لو لا ثبات المهلب وقوة جأشه فان ذلك قواهم حتي قتل أمير الخوارج عبيد الله بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا الى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب الى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فانا قد لقينا الازارقة المارقة بحد وجد فكانت الناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الامل فصاروا دريئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجوا أن يكون آخر هذه النعمة

كأولها والسلام. فكتب اليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الازد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهاد أركان المشركين وأخا السياسة والرياسة فاستدم الله بشكره يتمم عليك نعمه والسلام. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الازد : ما أهل مكة الا أعراب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبد الله : فلما ولى مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بارجان وعليهم الزبير ابن على السليطى فشخص اليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا : ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريبا منهم فقال له مالك بن حسان ان المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على أبعد من هذه المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفى ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمالك كيف رأيت قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما أنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيره فتقاتلون معي تعذيرا ثم زحف الى الخوارج فقاتلهم قتالا شديدا حتى انهزموا وقتل فى الموقعة ابنه عبيد الله فكتب الى مصعب : أما بعد فاني قد لقيت الازارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم

وبالله أستعين وعليه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا الى فارس فألح عليهم حتى أخرجهم الى أصفهان فأقاموا برهة ثم عادوا الى الاهواز وقد ارتحل عمر الى اصطخر : وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون فى الارض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على اعادة المهلب الى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المازنى فخرج اليهم المهلب ولما أحس به قطري تيمم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز. ولما استمد الخوارج كرواعليه فحاربهم المهلب وتقاهم الى رامهرمز وفى تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير فى حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماتقولون فى مصعب قالو إمام هدي قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل : ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ماتقولون في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون فى عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج يا أعداء الله بالامس ضال مضل واليوم إمام هدي ياعبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له انما أمن أهل هذا المصر بان المهلب بالاهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فاذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبي الا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتي قابلهم بدارىجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب الى عبد الملك به فكتب اليه عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال

الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني انه عامل لك على الاهوز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك إعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالاهواز ومن وراء الاهواز وقد بعثت الى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فاذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه ان شاء الله: فشق عليه أن فيل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفى أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال احضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك الى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وخرج خالد باهل البصرة حتى جاء الاهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ماهالهم فانصرفوا منهزمين كانهم على حامية وأتبعهم خالد داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الاهواز

وفى ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجى فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الاهواز وأمر أبى فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف الى أبي فديك فانهزم

لما رأى عبد الملك ذلك عزل خالدا وولى أخاه بشر مكانه وكتب أليه أما بعد فابعث المهلب فى أهل مصره الي الازارقة ولينتخب من اهل

مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فانه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فاني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً حسيباً صليباً يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أى وجه ما توجهوا حتي يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك . فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبدالملك وأمره أن ينتخب من شاء وشق على بشر أن امرة المهلب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له انك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظنى بك أنظر إلى هذا الكذا والكذا يقع في المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به — فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الاسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجهل : وهكذا في كل زمان وفى كل أمة من يدوس المصالح العامة ارضاء لشهواته النفسية واهوائه الفاسدة ولا تهمه الامة سعدت أو شقيت : رجل يكره رجلا فيبال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا البلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه خرج الجيشان حتى وصل رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس الا عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من

خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالمودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعاً حتى جاءهم الاسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً ووجههم الى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما تتابع مسير الجنود الي المهلب وابن مخنف ناهضا الازارقة حتي أجلوهم عن رامهرمز فساروا الى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان : كان المهلب يخندق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبي فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم انه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى يد المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا يأتيهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتي نزل بجيرفت وهى مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول فيه : أما بعد فانك والله لو شئت فيما أري لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الارض حولك : وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم اذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد واياك والعلل والاباطيل والامور التى ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن فى كتيبة واخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال

الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا بأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس و بنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء الى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء

حدث فى معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم فى حسبان ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري ان يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أري أن أفعل رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريا وولوا عبد ربه الكبير وبقى على بيعة قطرى منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم فى وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى المهلب فتركه الحجاج و رأيه : استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم أن قطريا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم الا قليل وأخذ عسكرهم ومافيه وسبوا لانهم كانوا يسبون المسلمين : ولكعب الأشقرى قصيدة طويلة يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص انى عدانى عنكم السفر وقد سهرت فأودي نومى السهر

وهى من غر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدى الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم

وكفى بيزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فاذا أليلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا اذا أخذنا عفونا واذا أخذوا يئسنا منهم واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج ان العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذي نحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال أكنت أعددت لى هذا الجواب قال لا يعلم الغيب الا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافى بالاسلام فقد ما سواه الذى حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة فى وقت امكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العالمين): فكتب اليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فاذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وان كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بازائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لاحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم ان شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني انك اليوم لست كما كنت انما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك الا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن الى من معك وان أنكرت من انسان شيئاً فوجهه الي وتفضل على قومك وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه الى جانبه وأظهر اكرامه وبره وقال يا أهل العراق انكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الايادي

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم الا ريث يبعثه ... هم يكاد حشاه يقصم الضلعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتي استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأى لا قحماً ولا ضرعا(١)

فقام اليه رجل فقال أصلح الله الامير والله لكأني أسمع الساعة قطرياً وهو يقول المهلب كما لقيط الايادي ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتي امتلأ سروراً فقال المهلب انا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة

(١) القحم آخر سن الشيخ والضرع الصغير الضعيف

الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ماذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا ان شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال انه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم: قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغير بن أبي صفرة وأشباهه: فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنأ فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الامير اني كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك: قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب:

اني امرؤ كفني ربي واكرمني	عن الامور التي في رعيها وخم
وانما أنا انسان اعيش كما	عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ماعاقني عن قفول الجند اذ قفلوا	عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ما تجهمني	اذن الأمير ولا الكتاب اذ رقموا
ان المهلب ان اشتق لرؤيته	أوامتدحه فان الناس قد علموا
ان الاريب الذي ترجى نوافله	والمستعان الذي تجلى به الظلم
ألقائل الفاعل الميمون طائره	أبو سعيد اذا ماعدت النعم

أزمان أزمان اذ عض الحديد بهم ... واذ تمنى رجال انهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته فى أسفل الشعب فتدهدى حتى خرّ الى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم فى قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوا حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧

وبذلك انتهى أمر الازارقة بعد ان ذاق الناس منهم مرّ الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمى ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبتا مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ما أدرى ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا غلوّاً وعتوّاً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون وفى اى وقت ان خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب الى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا فى هلال صفر ليلة الاربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا الى قتال أحد من الناس الا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم فانكم انما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه وعصى فى الارض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الاموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها فان كل ما أنتم عاملون

أنتم عنه مسئولون : ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجوا الخوارج حتى تركوا امكانهم وساروا فقطعوا أرض الجزيرة ودخلوا أرض الموصل فقطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح ابن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن

وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عداً وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى اخراجهم فاجتمع اليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه ولكنها لم تنل منه منالاً وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبدالملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب اليه أن يرسل اليه جنداً من أهل الشام فوجه اليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفاً ومن الغريب ان الالف هزمت الخمسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الارجاس حقكم غضوا الابصار واجثوا على

الركب واستقبلوا القوم بأطراف الاسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكانهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب فى تعبية فثبتوا له حتى اذا غشى أطراف الاسنة وثبوا فى وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدماً وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل فى هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهي الامر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج فى أثره جنود الشام حتي قابلوه بالانبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جداً وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب فى النهر وتفصيل الوقائع التى جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجه أن المسلمين استراحوا من الازارقة ومن شبيب فى سنة واحدة

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح فى الشرق — الفتوح فى الشمال ـ الحج
السكة ـ ولاية العهد ـ وفاة عبد الملك وبيته وصفته
الوليد الاول ـ الاصلاح الداخلى

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التى حدثت ابان هذه الاضطرابات وهدم الكعبة وبناؤها ففى سنة ٦٥ هـ. هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالارض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس ويصلون الى موضعه وجعل الحجر الاسود عنده فى تابوت فى سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب أو

طيب عند الحجبة في خزانة البيت حتى أعادها لما عاد بناءها وكان السبب في ادخاله الحجر ضمن البيت ماروته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد اسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذى فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الاحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بعد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لان الامة اذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها ان تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الامة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يدها عن الفتح ولم تظهر أمام الامم الاخرى بمظهر الضعف الا في بعض الاحيان

الفتوح في الشرق

بعد ان انتهي المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان ففي سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه الى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد فنزل في عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل في عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب قد غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله في قلعته فأتي يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها اليه ورجع إلى المهلب ووجه

المهلب ابنـه حبيباً إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري فى أربعين ألفا فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكس المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السغد وما وراء ذلك قال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مروسالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديدا وولى مكانه ابنه يزيد: ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فان صلة الرحم تنسيء في الاجل وتثرى المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتوصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم . ان بنى الام يختلفون فكيف ببنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فانى أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدو الرجل ورواحه اليكم لذ كرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة فانها أنفع فى الحرب من الشجاعة واذا كان اللقاء نزل القضاء : فان أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتي الامر من

وجهه ثم ظفر فحمدوان لم يظفر بعد الاناة قيل مافرط ولاضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين واياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لولم تقدمه لقدمناه ومات المهلب وأوصي الى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد الى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب اياه فأقره وتوفي فى ذى الحجة سنة ٨٣ فقال نهارين توسعة التيمي

ألا ذهب الغزوا المقرب للغنى ... ومات الندي والجود بعد المهلب

أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

اذا قيل اي الناس أولي بنعمة ... علي الناس قلناه ولم نتهيب

أباح لنا سهل البلاد وحزنها ... بخيل كارسال القطا المتسرب

يعرضها للطعن حتى كانما ... يجللها بالارجوان المخضب

تطيف به قحطان قد عصبت به ... وأحلافها من حي بكر وتغلب

وحيا معد عوذ بلوائه ... يفدونه بالنفس والام والاب

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيزك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قدخرج عنها فلما جاء صالحه على ان يدفع اليه مافى القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد الى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحي بن يعمر العدواني ونص كتابه إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفه ولحقت طائفة برءوس الجبال وعراعر الاودية وأهضام الغيطان وأثناء الانهار : فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد

فقيل له يحي بن يعمر فكتب الى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالاهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبى وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيراً قال ففلان قال نعم قال فأخبرني عني أألحن قال نعم تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن وإن في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فان أجدك بعد ثلاث بارض العراق قتلتك فرجع الى خراسان وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل :

وفى عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم نمتا آخرون وشومان ظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال كان يعطى الناس كلما جاءه شيء وان غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد

الفتوح في الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذى يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبد الملك اليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما انقشعت هذه السحابة واستقر الامر لعبد الملك عادت الغزوات الى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفى سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان

أمير جندها عبيد الله بن عبد الملك وفى سنة ٨٤ غزا عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة

الحج

كان الذى يقيم الحج عبد الله بن الزبير فى عهد خلافته وفى سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية : ابن الحنيفة فى أصحابه فى لواء وابن الزبير فى لواء ونجدة الحرورى فى لواء ولواء بنى أمية قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت اليهم جميعا فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله الى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلى ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يروم منى وما أطلب هذا الامر الا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك بنجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به بن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى وهؤلاء أهل خلاف فقلت أري لك خيرا الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحرورى فأجده فى أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال اما أن أبتدىء أحدا بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت فانى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك : ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا الا ان قاتلنا. ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس : وهذه حادثه غريبة في تاريخ

الحج وبعد قتله كان بقيمة عمال بني أمية

السكة الاسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وانما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطاً والدينار عشرين قيراطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضرب بها بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الامصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك ان يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك اذ

جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه

وعهد الى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما الى البلدان فبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام ابن اسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك الى هشام يلومه على مافعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وانا لنعلم ماعنده من شقاق ولا خلاف

وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ اكتوبر سنة ٧٠٥) توفى عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا من مستهل رمضان سنة ٦٥ الى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل فى ١٧ جمادى الاولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لانه ولد سنة ٢٦

بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسى فولدت له الوليد وسليمان ومروان الاكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام ابن اسماعيل المخزومي فولدت له هشاماً (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمى فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن

عثمان بن عفان فولدت له الحكم (٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة (٧) شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي (٨) ابنة لعلى ابن أبي طالب (٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وله من الاولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لامهات الاولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولى أمر الامة وهى فى غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التى ذهبت فى سبيل ذلك كثيرة جدا لان الامة حية نشيطة لا تدين الا للقوة القاهرة التى هي فوق طاقتها والاهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منه الا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الامر مني وان ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا : ومما عد من مساوى عبد الملك انه قال مرة وهو على المنبر من قال لى بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد أعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانو يقفون هذه المواقف قصد الشهرة حتي اذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذرا ومما عد من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله اياه بعد أن أمنه وقالوا ان هذا أول غدر حصل في الاسلام ومن

سن سنة سيئة فعليه اثمها واثم من عمل بها إلى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على ان كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحا عالما بالاخبار فقيها وقد قدمنا شيئاً من ذلك فى أول خلافته

٦ ﴿ الوليد الاول ﴾

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد الا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك بويع بالخلافة فى اليوم الذي مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتي صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس انه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار الى منازل الابرار ولى هذه الامة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على اعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها من ابدى الناس لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام اليه الناس فبايعوه

موسى بن نصير (٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فانه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم اليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج اليه فسار القاسم إلي بلاد السند حتي أتى الديبل (١) فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو اليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بني بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتي البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج نصالحوه نوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران (٢) فأتاه سمنية سربيدس نصالحوه على من خلفهم و وظف عليهم الخراج وسار الى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته : ثم ان محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقده فالتقي بداهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال في ذلك قاتل داهر

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

---

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(٢) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

انى فرجت الجمع غير معرد … حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً … متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتح راور عنوة ثم أتى برهمنا باذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخاف بها تاه لا ثم سار فتلقاه أهل ساوندري وسألوه الأمان فأعطاهم اياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودلالتهم : ثم تقدم الى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى الى الرور (١) وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم وقال ما البد إلا ككنائس النصاري واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً : ثم سار حتي قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيرا منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج اليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله : وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان الى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطي الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتي الكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر : بعد إتمام هذه الفتوح العظيمة التى نشرت ظل الاسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم

---

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطىء نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة بهذه البلاد وبينهم وبين الملتان اربع امرحل وبالقرب من الرور مدينة بغرور

بعد على خاتمة حياته وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو قمعاً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عمن قتل فى سبيله انه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصي أثر وأمضى ألم واياى والهوينا

ثم عرض الجند فى السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتي ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه الى بلاده فمضي مع ملك الصغانيان فسلم اليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساء جواره وضيق عليه فسار قتيبة الى آخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد الي مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب اليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب اليه اذا غزوت فكن فى مقدم الناس واذا قفلت فكن في

أخرياتهم وساقتهم

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك انه كان فى يد نيزك أسري من المسلمين فكتب اليه قتيبة يأمره باطلاقهم ويتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسري فوجه اليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتي يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى الي النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفى ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوا الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه ان أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع اليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو : ولما كان الربيع سار عن مرو فى عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتي نومشكث وهى من بخارى فصالحه أهلها ثم سار الى راميثنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم السغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع الى مرو

الحال فى عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية نفيها قام باصلاح داخلي عظيم واشتهر فى الامة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الامم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الامور ومهدها فاستلمها الوليد والامة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الاهواء فان الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحركوا ساكنا ولم يوقظوا فتنة

الاصلاح الداخلى

كان الوليد ميالا الي العمارة فاهتم فى زمنه باصلاح الطرق وتسهيل السبل فى الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب الي عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب الي سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التى يستقى منها أهل المدينة وأجرى اليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : واصلاح الطرق من أهم مايذكر لولاة الامر في إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمتين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففى السنة المتقدمة مر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوى وهدم بيوت أزواج الرسول وادخالها فى المسجد وأن يشترى دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتي يكون مئتى ذراع في مثلها ومن أبي فلتقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع اليهم ثمنها فان لك في ذلك

سلف صدق عمر وعثمان وأرسل اليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل
فى ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم
مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث اليه بمئة
ألف مثقال ذهب وبعث اليه بمئة عامل وبعث اليه من الفسيفسا باربعين جملا
فابتدىء بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يبق الا حجرة عائشة التى فيها القبور الثلاثة وكان من رأي
بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين
فى صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر فى ذلك عمر وقد هداه الفكر أن
يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهى بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة
مخمساً أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الاموى فان الوليد احتفل
له احتفالا عظيما حتى خرج مناسبا لعظمة المملكة الاسلامية ولا يزال الشيء
من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس فى حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاله حتى
كانت مسألتهم عنها اذا تقابلوا : وبنى الوليد المصانع فى الشام لتسهيل الاستقاء
ومن الاصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل
لهم من العطاء مايقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل قائد ضريراً
وعلى الجملة فكان الوليد محسناً الى رعيته . ومما يدل على حسن
معاملته للعلماء انه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة فلما وصل
المدينة دخل الي المسجد ينظر الى بنائه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد
وبقي سعيد بن المسيب مايجترىء أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه
الا ريطتان ماتساويان خمسة دارهم فقيل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل

الوقت الذى كان يقوم فيه قيل فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم اليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد رجاء أن لايري سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم ياأمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتي وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت ايها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمدلله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمدلله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل ياأمير المؤمنين وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسناد حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلا أما العلماء فانهم رضوا لانفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتي صار كل مايصيبهم فى الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم وأما ذوو السلطان فانهم أحيانا يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون ان يكون لاحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدي لهم نصيحة أو يعرفهم واجبا فيحاربونهم لقصد اذلالهم وحط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فانه لايضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته فى عمله بعمر بن عبد العزيز الذى

أعاد سيرة سلف هذه الامة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة ابن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر ابن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم ابن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم اذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه اجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال انى انما دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ما أريد أن أقطع أمراً الا برأيكم أو برأى من حضر منكم فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك الا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن فاستشاره فيمن يوليه على المدينة فاشار بعثمان بن حيان المري فولاه المدينة

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج — وفاة الوليد — سليمان

الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الاسلامي وهم (١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى (٢) قتيبة بن مسلم الباهلى (٣)

وفاة الحجاج

فى شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنة ٥٤ سنه واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو فى الارض ولا تقبل أن يقف فى طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فان فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت فى سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها واذا كان لتلك النفس قوة فهنالك العذاب الا كبر والعسف الشديد واذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء الكاذبة حتي تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الاول فعسف أهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع: اسرف فى القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهي أمره الى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد: قال له عبد الملك يوماً كل امرئ يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عنى شيئاً. قال أنا لجوج حقود حسود: ومتي كانت هذه الصفات فى ذى سلطان أهلك الحرث والنسل الا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خاليا من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيما: وكان فصيحا لا يكاد

يعادله أحد فى الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد ان ضحى فى سبيل ذلك أنفسا كثيرة وكان الخراج العراقي فى زمن الفتن والعسف قد قل جدا : وأنا كما علمتم لست ممن يعجبه الاصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها اصلاحا حقيقيا وانما هي طريقة اذلال واخضاع لايدوم أثرها كثيرا لان النفوس تنطوى على مافيها من البغض والكراهة حتى اذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك

فى منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ توفى بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث فى الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ الى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه اذ توفى ستا وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر ابنا

(سليمان)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة بويع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لاول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشي أن يموت الوليد قبلة فيقع فى يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل الى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الالد : فلما ولى سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند فأخذ محمد ابن القاسم وقيده

وحمله الى العراق فقال محمد متمثلا

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكي أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبس بواسط فقال

فلئن ثويت بواسط وبارضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن فى رجال من آل أبي عقيل حتي قتلهم بذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لاهواء الخليفة حتي تقر نفسه بالانتقام وتناسى مافعله ذلك القائد من عظيم الاعمال ولا ندرى كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم اذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثانى قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوليد على غرضه فى عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو بعد من صنائع الحجاج فلما ولى سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب اليه كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة ان لم يعزله عن خراسان وكتب كتابا ثانيا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلى وقال له ادفع اليه الكتاب الاول فان كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه اليه فادفع اليه الثانى فان قرأه ورماه اليه فادفع اليه الثالث فان قرأ الكتاب

الاول ولم يرمه اليه فاحتبس الكتابين الآخرين تقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع اليه الكتاب الاول فقرأه ورماه الى يزيد فدفع اليه الثاني فقرأه ورماه الى يزيد فاعطاه الثالث فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول الى دار الضيافة ولما أمسى اجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى اذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة كان قتيبة غير مطمئن الى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه الى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعا سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو واخوته واكثر بنيه قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ماصنع قتيبة الا انه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليه أن اختلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التى تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأني قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح الى الجنات عفا مطهراً
فما رزيء الاسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا

وكانت قيس تزعم ان قتيبة لم يخلع وانما تجني عليه وكيع وعلى كل حال فان الذى حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك

وقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى الى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج بذلك فكتب اليه الحجاج أن صورها لي فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج ان ارجع الى مراغتك فتب الى الله مما كان منك وأتها من كان كذا فخرج قتيبة عن مرو سنة ٩٠ فاستنصر ملك بخارى بالسغد والترك ومن حولهم ولكن قتيبة سبقهم الى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا عن هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشي الى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هريم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم فقال وكيع قدم يا هريم ورفع اليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هريم ودب وكيع في الرجال فانتهى هريم الى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هريم فنظر اليه هريم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله انك لأحمق فقال وكيع مغضباً أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال ما بعد هذا أشد منه وعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع الى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال أصحابه من

وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى اذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال لهريم اني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما انثنوا حتى خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه: ولما تم الفتح كتب به قتيبة الى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل أحصنهن ثم غزا سمرقند وهي مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبني بها مسجداً وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

الا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أقام بمرو الروذ رهن ضريحة ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذي أقول

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لاهل الترك قتلا بسيفه ... واكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعاً الى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف الى مرو فأقام بها وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش (١) وفرغانة (٢) حتى بلغ خجندة وكاشان

---

(١) اقليم متاخم لبلاد الترك واقليمها اكبر اقاليم ما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت (٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة

مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر (١) وهي أدني مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار الى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية قال فانا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطيء التراب ثم عاد الى مرو

هكذا افتتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها الى المملكة الاسلامية فانتشر فيها الاسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم: كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود

البلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ ف ومن ولايتها خجندة

(١) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك

وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم الى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما موسى بن نصير فانه ذلك القائد العظيم الذى فتح بلاد الاندلس وأدخل الاسلام فى قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الاندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا ان شاء الله فانا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فان عزيمته ظهرت فى حروب الروم فكان فى كل سنة يسير اليهم الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية واذا ورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه فى حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فاراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب اليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير اليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك : ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فان خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فانه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه الى دمشق فقدم وقدمات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الاعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيما لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب فى معونته وعلى الجملة فان فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فانهم استبشروا به لانه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم فى عهد أخيه وأطلق الاسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس

الفتوح فى عهده

في عهد امارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم اتي جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جنداً وسار الى طبرستان فقاتله بها الاصبهبذ قتالا شديداً ثم صالحه أخيرا وبيناهو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الاخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لانها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد الى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيما وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

وزيادة في نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لامير المؤمنين ان شاء الله)

في بلاد الروم

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتي يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحاصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد ابن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان

في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه اذ توفي ٤٥ سنة

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثاني

٨ (عمر)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه اياه

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذى لم يكن فتح وجمع بنى أمية فى مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان فى كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعى عمر فاجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ماهذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم اقبل سائرا فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فساطى كفاية حتى يتحولوا فأقام فى منزله حتي فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد الي الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون الى أمتهم نظر الاب البار ويعدلون بينهم فى الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها: كذلك كان عمر بن العزيز

في أول خلافته أرسل كتاباً عاماً الى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى

ويزيد بن عبد الملك من بعدي ان كان وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس على بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديداً ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) .

وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقي عليه من أمر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السري ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف فأذن لنا فليفد منا وفد الى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق أعطيناه فان بنا الى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له ان أهل سمرقند قد شكوا الى ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فاذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فان قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضي أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة : فقال أهل السغد بل نرضي بما كان ولا نجدد حرباً لأن ذوي رأيهم قالوا اقد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فان عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل في العدل اليه

ومما يبين رفقه بالأمة وميله الى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق

فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم الا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الارض فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه اليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك به فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي وكتب عمر الى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاء كتاب عمر ومحمد بن جرير. وكان كتاب عمر بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهلم اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا: فكتب بسطام الى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك: ولما وصل هذان الرجلان الى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم: فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الامر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم: فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد الى رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم: فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم: فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً وقال ابراهيم (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذماً ونقصاً وليس لعن أهل الذنوب فريضة

لا بد منها فان قلتم انها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته
قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني الا أن ألعن
أهل بيتي وهم مصلون صائمون — قال أماهم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الايمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه فان
أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا
الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول
لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم
عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء — قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك ورد
أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن
أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال قال
بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده الى عشائرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من
أبي بكر قال لا قال أفتبرءون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل
النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم
يأخذوا مالاً وأن من خرج اليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب
وجاريته وهي حامل قال نعم — قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض
قال لا قال أفتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر
وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني
الا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فانكم جهال تقبلون من الناس
ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من

خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فانكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وانتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الاديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلا ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر الى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال انما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا : وكان هذا السؤال الأخير محرجاً لعمر فطلب النظرة فى الاجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء : أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم انما خرجوا طلباً للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فانه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق بأمته

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلى الامصار بتركه وكان الذي وقر ذلك فى قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء مما يقوله بنو أمية فقال له عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك فى علي فقال عمر معذرة إلى الله واليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع

مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثير عزة

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا انما يكفي الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم

ومن اصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب الى سليمان ابن أبى السري أن أعمل خانات فمن مرّ بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين وان كان منقطعاً به فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج ابن يوسف فقد كتب الى أمير العراق (أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وان قوام الدين العدل والاحسان فلا يكون شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ماطاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من اهل الذمة فاتبع فى ذلك

أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) : ومما فعله انه نهي عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع الا بعد أن يراجع فيه بعد ان كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوي الامير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة الى رأي القاضي الذى حكم ضمان كبير لان يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لاهلها — لما ولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم ان فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم انها قد صارت الى ولم تكن من مالى أعود منها على واني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال لمولاه مزاحم ان أهلى أقطعوني مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه واني قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أكلهم الى الله فخرج مزاحم حتي دخل على عبد الملك بن عمر فقال له ان أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال ان مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك قال اني أردت أن أقوم به العشية وقال عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعينني على ديني ثم قام من ساعته في الناس فردها. وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم

ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضي الامر الى وقد يبس النهر الاعظم فلم يرد أصحابه حتي يعود الى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فاما اذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بانفسكم تزوجتم باولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولى عمر قال للناس في خطبة من صحبنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه: ولا يغتابن أحدا: ولا يعترض فيما لا يعنيه . فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه عمر فقال يا بنى كيف تجدك قال أجدني فى الحق قال يا بنى أن تكون فى ميزانى أحب الى من أن أكون في ميزانك فقال يا أباه لان يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لابيه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك اذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه أو باطلا لم تمته فقال يا بني ان أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس

على فى يوم الا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فان عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث « ان الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الامة أمر دينها »

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الاخلاق وهو فى بيئة المترفين والاخلاق انما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الانسان فنقول ان عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه الى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهائها وصلحائها فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الامة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن على الباقر ان لكل قوم نجيبة وان نجيبة بنى أمية عمر بن عبد العزيز وانه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتيناه نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت منذ علمت ان الكذب يضر أهله

لم يحدث فى عهد عمر شىء من الحوادث الداخلية المهمة الا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر فسأله عن الاموال التى كتب بها الى سليمان ابن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت وانما كتبت الى سليمان لاسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد في أمرك الا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين ان

الله منح هذه الامة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقي الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا احمل ما عليه فصالحني علي ما تسأل فقال عمر لا الا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها والا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فان لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه الا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنه حتى اذا أحس بقرب موت عمر أعد الهرب عدته خوفاً من يزيد بن عبد الملك لانه كان قد عرب آل أبى عقيل وهم أصهار يزيد لانه كان متزوجاً بينت أخي الحجاج وهرب بن المهلب قاصداً البصرة وكتب الى عمر اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحقه به وهضه فقد هاضني

ومن الحوادث الخارجية فى عهده انه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا باسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها الى ملطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم الى أن ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم فلم يزالوا كذلك الى أن ولي عمر فأمرهم بالعود الى ملطية واخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لانه ذكر وفاة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكرناه الا انه ذكر فى بعض الروايات ان سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه واذا كان ذلك صح أن تكون الايام أربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية فى موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر

٩ ﴿ يزيد الثانى ﴾

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد اليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفى عمر بويع بها فلما تولى عمد الى كل صالح فعله عمر فأعاده الى ما كان عليه وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت فى معاشرة القيان

وفى أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فانه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي ابن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والاهواز فبعث اليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك. خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم انه يدعوهم الى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم ان جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصرى سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك واليا ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك فقام اليه

أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه ابن المهلب :

وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا الى سنة العمرين فقال الحسن انما كان يزيد بالامس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ثم قال اني قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال اني أدعوكم الى سنة العمرين وان من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد الى محبس عمر الذي فيه حبسه

ثم ان يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقي بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود ولما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتي اذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى قندابيل لحقهم الجند الذى امر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم الا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا : وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الاموية من تتباهى الامم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبدالملك اخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا فارعى فزارة لا هناك المرتع
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع

ولقد علمت لئن فزارة أمرت　　أن سوف تطمع في الامارة اشجع

من خلق ربك ماهم ولمثلهم　　في مثل ما نالت فزارة تطمع

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو ابن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان

وولى ابن هبيرة سعيداً الحرشي على خراسان وكانت له مع السغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه واقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على ارمينية وامده بجيش كثيف وامره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء فسار الجراح حتي وصل برذعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكر ولما وصل الى مدينة الباب والابواب لم يجد فيها احداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم اقبل اليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيما ثم سار حتي نزل على حصن يعرف

بالحصين فنزل أهله بالامان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه . ثم سار الى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الابصار ثم ان الجراح أخذ اولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل اليه فحضر ورد اليه امواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفا من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثرا وفتحا في تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له انه صغير فولى أخاه هشاما ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفي يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من ارض دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهرا من ٢٥ رجب سنة ١٠١ الى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥

المحاضرة الاربعون

هشام — الاحوال الداخلية في عهده — صفته ووفاته — الوليد الثاني يزيد الثالث — مروان الثاني

١٠ ﴿ هشام ﴾

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان ابوه عبد الملك اذ ذاك يحارب مصعب بن

الزبير وامه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات اخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى اتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة الى سادس ربيع الاول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوما وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بنى امية ولعمرى ان من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير بذلك

الاحوال الداخلية فى عهده

فى العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولى هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسرى وهو قحطاني . فاختاره لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداما غزا فى اول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفى سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ واقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن اقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك ابو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد انه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفرا معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبخترى بن ابي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم الي اخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمى من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

اذا لقيتم عند شد وثاقه بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجراً

وخطب أسد يوماً فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني الى مهاجري ووطني فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب الى خالد أعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولاول عهده أرسل الى أهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الي الاسلام فكتب صاحب الخراج الى أشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي أمير سمرقند ان فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة انما اسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع اخراجه : كان رسول أشرس الى الصغد بدعوة الاسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأي انعمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة ان عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبى الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتي جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فاعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا فى جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فاقبل اليه الصغد والترك وكان بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا ان رجعوا فثبتوا حتى هزموا

عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم الى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان الى مدينة كمرجة وهى من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخاري فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي علي الخندق واستماتوا فى المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل الى من بالمدينة يقول لهم انه ليس من رأينا أن نرحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم. ثم اتفق معهم خاقان أخيرا على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة الى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة الي الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفى سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المرى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل الا مضريا

وفى سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً الى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف الى وجه آخر فكتب اليه أمير سمرقند ان خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت اليهم فلم

أطق ان أمنع حائط سمر قند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأى ممن معه ان أمير خراسان لا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك : قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمر قند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان فى جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسناً مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله ابن حبيب اختر اما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون علىّ قال فاكتب اليه فليأتك فى أهل سمر قند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه فقاتلوه : فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم : فرحل سورة عن سمر قند فى اثنى عشر ألفاً فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم الا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير الى سمر قند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الوقعة الاولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمر قند وحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه ان خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمر قند محترساً

على تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها : ولم يزل سائراً حتى ورد بخاري : والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ماظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولي بدله عاصم بن عبد الله الهلالي وكان هشام قد غضب على الجنيد لانه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً الى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الاعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فان الرائد لا يكذب أهله وان خراسان لا تصلح الا أن تضم إلى العراق وتكون موادها ومعونتها في الاحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطوء غياثه عنها) فعزل هشام عاصماً عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد : ولما بلغ عاصماً اقبال أسد صالح الحارث ابن سريج على أن ينزل الحارث أى كور خراسان شاء وان يكتبا جميعاً الى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فان أبى اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لامير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو واصحابه

ولما قدم أسد حبس عاصماً وحاسبه وطلب منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت فائدة عمله : ثم ان خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض : وأرسل أسد مبشراً الى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين : وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الاخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحي ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الابشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فان تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة

ولى خرسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف ابن عمر

وفى ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بنى عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ: وبلغت الاخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له: ماقولك فى أبى بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما الا خيراً وان أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين ندفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة: قالوا فلم يظلمك هؤلاء اذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتالهم: فقال ان هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولانفسهم وانما ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والى السنن أن تحيا والى البدع أن تطفأ فان أجبتمونا سعدتم وان أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الامام يعنون محمداً الباقر وكان قدمات فسماهم زيد الرافضة . وفي الليلة التى كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته اكثر من مئتى نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الامر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه الى هشام فصلب على باب دمشق : والى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

. مانصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ماوراء النهر كان له فيها

النصر دائماً : ووضع الجزية عمن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف ابن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبدالله الحكمي وكان له غزوات الى ماوراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولي بدله مسلمة بن عبد الملك فارسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث ابن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقاً وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة الى الترك من باب اللان فلقى ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أرد بيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي واتبعه بالجنود ولما وصل ارزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل الى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء الى أن وصل برذعة فنزلها : كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أساري وسبايا فسار اليهم ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق اصحابه

في أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان: ثم تجمعت الخزر مرة أخري ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا اقتتالاً شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فان الحرشي أذل الخزر اذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاه الى هشام فكتب اليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار الي الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا اخيامهم وأثقالهم وعاده وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا اليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب اليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمئة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه الى ذلك هشام وعزل مسلمة وولي مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود اليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى الى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلا فاقام مروان في تلك البلاد أياما ودخل بلاد ملك السرير فأوقع باهله وفتح اقلاعا ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك

البلاد باظهار القوة حتي لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفا شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطىء بحر الخزر

في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالى للبلاد الاسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام وقد افتتحوا فى غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيرا من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر فى عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة

ومما ينبغى ذكره فى حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل: وفى سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو الى بلاد الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفا شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره على رءوس

أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه و بين الروم

وانما اشرنا الى ذكر عبد الوهاب والبطال لانهما بطلا رواية كبيرة ألفت فى عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهى أم عبد الوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحدا يقرأ منها شيئاً : وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر انهما ألفا فى عصر واحد

فى الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفى سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما روي عنه فى حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار الى جنبه يقول ياأمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن أبا تراب فانها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنه فيها : فشق على هشام قوله وقال لاقدمنا لشتم أحد ولا للعنه قدمنا حجاجاً ثم . قطع كلامه وأقبل على أبى الزناد راوى هذ الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو فى الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظما له الارددت على ظلامتي قال أى ظلامة قال داري قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمني : قال فالوليد وسليمان قال ظلماني قال فعمر : قال رحمه الله

ردها علي قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي لها وهي في يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال في والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم الا فى سنة ١١٦ فان الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه ان شاء الله وحده فى تاريخ مصر

هذا مجمل حال الامة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الاعداء الا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الامم الكبرى ان تكون شعبا جنسية فان هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فاذا ضعف اثره قليلا و نبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد انه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الامة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك وهو الوليد بن يزيد فبدا لهشام ان يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وأن كان قد أجابه بعض القواد الى ما أراد : وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالازرق على ماء له بالاردن

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفي هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ الى ٦ ربيع الاول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهورا بالحلم والعفة : شتم مرة رجلا من الاشراف فقال له الرجل أما تستحي أن تشتمني وانت خليفة الله في الارض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص مني قال اذاً انا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضا من المال قال ما كنت لافعل : قال فهبها لله : قال هي لله ثم لك : فنكس هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها ابدا

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة المزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف :

ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لان ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه مافعله مع الوليد بن يزيد فانه اساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه : ودعا القواد الى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ ﴿ الوليد الثاني ﴾

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان والياً للعهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرنا

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب الى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه الا مسلمة بن هشام فانه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الاحول المشـ ـئوم وقد أرسـل المطر
وملـكنا من بعـد ذا ك فقد أورق الشـجر
فاشكـر الله انه زائد كل من شـكر

وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محلبه الاوفر قـد أترعا
ليت هشاما عاش حتى يري مكياله الاوفر قـد طـبعا

كلناه بالصاع الذى كاله　　وما ظلمناه به اصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة　　أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الامة وأفراد البيت الاموى

كان ممن أجاب هشاما الى خلع الوليد محمد وابراهيم بناهشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليا عليها ودفع اليه محمدا وابراهيم موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فاقامهما للناس ثم حملا الى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط الا فى حد . قال ففى حد أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجى وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد اخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه الى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى اياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه ابراهيم ثم أوثقهما حديدا وأمر أن يبعث بهما الي يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتي ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مئة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه الي عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك

وكان خالد بن عبد القسري سيداً من سادات اليمن فطلب اليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبي فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن أرسله الى يوسف بن عمر الثقفي والى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم اليمن أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس الى قوله أميل لانه كان يظهر النسك بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله الاشهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح واذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا اليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الامر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعي العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه . ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل الى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب اليه وهو بالاغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه

وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

١٢ ﴿ يزيد الثالث ﴾

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسري وفى ذلك يقول

أنا ابن كسري وأبى مروان ... وقيصر جدى وجدى خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لانه نقص من أعطيات الناس مازاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة الاضطراب فى البيت الاموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرماً وعقلاً وجمالاً : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل اليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هانىء وكتب اليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وانما يدعو الى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشاً عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين : كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى

مشق فشد عليهم مروان بن عبد الله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفياني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا الى دمشق فسار سليمان مجداً في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً وأسار أوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه . وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فانهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الاردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير اليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم تتم لاهل فلسطين والاردن لانهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الامر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فان يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله الى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن على الازدى المعنى ويلقب بالكرماني لانه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون افساد الامر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الازد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا

أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لان كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس : ولم يكن عند ولاة الامر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فانه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة اشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه : وكان قد عهد بالولاية من بعده لاخيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالامر من بعده أخوه ابراهيم غير أنه لم يتم له الامر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية ابراهيم فسار الى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل ابراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتي دمشق فاستولي عليها وبايعه أهلها وهرب ابراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الامر لابراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

١٣ ﴿ مروان الثاني ﴾

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشتر فاخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لانه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه

في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع الى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً الى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجد في حربه وكانت العامة تميل اليه لمحبتهم لابيه فساعده ذلك على أن غلب عبد الله ابن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ماهو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالى على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه اهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فانه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم الى ذلك وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فاتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فاقبل اليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة ان انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيما فقتلهم ويقال انه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت

ثلاثين ألفاً ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار الى تدمر فاقام بها أما مروان فاتي حمص واستولى عليها افانتم ترون ان القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لاظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله الى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الامر الى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان اذذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير الى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار اليها في سبعة آلاف فسار اليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مئة ألف ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفرتوثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولي الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبري الى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبري ثار اليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز العسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف الى عسكره ورد خيوله الى

مواقعها وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا ابدله شيبان بن عبد العزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى ان الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه الي الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة الي العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جندا لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فان قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان الى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الازدي الشهير بابي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس الى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافي عبد الله بن يحيي في آخر سنة ١٢٨ فقال له يا رجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو الى حق فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا الي خلاف مروان وآل مروان

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ اذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمئة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه

أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الاخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الاول نفر عبدالواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال . ثم مضى عبدالواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبدالعزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى اذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فاوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا فرقي منبرها وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة انا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطرا ولا عبثا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الارض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض) أقبلنا من قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافا واحداً قليلون مستضعفون في الارض فآوانا وأيدنا بنصره فاصبحنا والله جميعا بنعمته اخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الي طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا الي طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق ندارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون

وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بايدينا ويشف صدور قوم مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم الا مشركا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو اماما جائرا يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها مالم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فاخذها لنفسه مكابراً محارباً لربه يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب احداث واعراب جفاة ويلكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا أحداثا شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفسا تموت بانفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقا الى الجنة فلما نظروا الي السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت والي السهام قد فوقت وارعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

ثم ان أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد

انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد ابن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فاذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتي لقي أباحمزة بوادى القري فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار الى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار الى اليمن وبلغ عبد الله بن يحي مسيره اليه وهو بصنعاء فأقبل اليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه الى الشام

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجرى فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بنى العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بنى العباس ثم مدوا سلطانهم الي العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدعوة العباسية)

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لابي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الامر بالعراق فكر في ارسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الاخير فاختار عمه عبدالله بن على قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة صار مروان ينتقل من بلد الى آخر وعبد الله بن على يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله فى أثره أخاه صالح بن على فلم يزل وراءه حتي عثر به نازلا فى كنيسة

بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الاموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

الخاتمة

في مدنية الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

الخلافة الاسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد في العهد الاموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة. وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني احد بتقوي الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كاحدهم في الاسواق والجامع يأمر وينهى ويربي ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الامير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد ابن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك

طاب يومي ولذة شرب السلافة　　وأتانا نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاماً　　وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزىء أحدهم بأقل مما يجتزي به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بعض بني مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الالوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الاغانى من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد: وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولى عهده من أهل بيته اما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك المقيم وبعد أن كانت الامة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الاخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

لم بدلوا الحكم الذي في سجيتي　　فبدلت قومي غلظة بليان

واذا كنا على رأى من يقول ان الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فان مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فان أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الامر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك : ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتي قتله وحل محله : ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتي دالت دولتهم على يده

اما من عدا هؤلاء الاربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الاول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره أبوه يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان الاول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الاول أخوه والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحداً لولاية عهده بل كانوا دائماً يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فاذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق : وأول من كان يبايع أمراء البيت الاموى ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم

وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا أحياناً عن نص هذه البيعة اذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الاشعث لا يبايع الا من أقرّ على نفسه بالكفر بخروجه

ادارة البلاد

كانت البلاد اسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم وكانت مقسمة الى أمارات كبرى وهي

(١) الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الامير بالمدينة وكان يضاف الى ذلك أحياناً بلاد اليمن واحياناً تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والامير يقيم في الكوفة بعض السنة وفى البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً: وقد يضاف أحياناً الى امارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين — والاردن — ودمشق وحمص — وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتي كان يزيد ابن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبجا جنداً برأسه وانما سمي كل منها جند لانه يجمع كوراً والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والاقرب أن هذا هو أصل التسمية

(٥) مصر وأفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية وكانت أفريقية في بعض الاحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الاندلس بعد فتحها وتارة كانت تضم الى أفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود أمارته

كانت الاعمال التي ترجع الى الخلفاء هي (١) اقامة الصلاة (٢) قيادة الجيش (٣) جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه (٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم: وقد كان الامير يقوم مقام الخليفة أحياناً في جميع ذلك يقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج فيصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى الى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه رأسا

والامراء الذين كانت اليهم النيابة العامة كانوا امتمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الاداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الامور العظيمة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري الا أن الحجاج كان اكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضي في حواضر الامارات الا انه لا مانع تمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره الى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على

الامراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لان ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم ان لا ينفذوا احدا من الحدود من قتل أو قطع الا اذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما في عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يامر بقتل الرجل على أيسر الذنوب أو يضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذي دعا الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الامير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم إذلال الامراء ومصادرتهم في أموالهم وأحيانا الاتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فانه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الامر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز الى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الاموى ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبد الله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالدا وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع يوسف ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله الى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله من الليل ودفنه من وقته بالحيرة في عباءته التي كان فيها وذلك بعد ان ولى

خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم من عظمائهم

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بان عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة الاسلامية من الجهة الشرقية فى السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية فى أفريقية والاندلس

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموى من حروب داخلية الا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فهي اذاً دولة حربية. ولا جرم ان امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود الى حومة الوغي واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب وها نحن نورد على أسماعكم جملة من اولئك الافراد العظام الذين مر ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق (١) المهلب بن أبى صفرة الازدى وكان علمه تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر فى حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات (٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعا مقداماً لا يرده شيء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فانه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم (٣) يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة الازدى وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال

واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فانه رد أهلهما الى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة فى جبين الدولة الاموية (٤) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائدا قبله وأخذ عليه عصبية لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم (٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه فى بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الامر بها حتى دانت له وقد قتل فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك

واشتهر فى أرمينية وأذربيجان (٦) محمد بن مروان بن الحكم الاموي كان شجاعا أيداً ذا عزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح فى شمال أرمينية وأذربيجان (٧) مروان ابن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن (٨) الجراح بن عبد الله الحكمى وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر

واشتهر فى بلاد الروم (٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنوا أمية فى أول أمرهم يولون الا أولاد الحرائر (١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان

رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة (١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة فى نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتي والصوائف الى البلاد الرومية واشتهر فى الغرب وأفريقية (١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان ولهمع البربر وقائع كثيرة انتصر فى معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في احدي تلك الوقائع (١٣و١٤) موسي بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الاندلس وادخلا الاسلام فى قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء

ولم تكن همة الدولة الاسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم اسطول قوى في البحر الابيض المتوسط يحمي البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم : وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر فى الدولة الاموية تقل مهارة واقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فان الدولة الاموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الامم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب فى جميع أدوارها : وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربى لان الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

القضاء والاحكام

لم يزل القضاء فى عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها فى عهد الخلفاء الراشدين الا ان تناكر الخصوم أرشدهم الى تسجيل الاحكام

قال محمد بن يوسف الكندي فى كتاب القضاة الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم الى سليم بن عنز (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) فى ميراث فقضي بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضي بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى فى أحكامهم اذلم تدون اذذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الامر راجعا الى اجتهاد القضاة أنفسهم أوالى مايشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً الا وهبه ووصل به اخوانه وأفضل به عليهم فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبد الملك كان يري أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع اليه غلام من حمير لا تحوى يده شيئا الا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يابنى: قال فمن يحجر عليك أيها القاضى والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية فى اختيار الآراء التى يقضون بها. وكانوا أحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة اذا اشتبه عليهم الامر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الازدى قاضى مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب اليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فاذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أوغيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضاً فى الامصار المختلفة لأن

المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة الى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم أو يحمل مجتهدى كل مصر على عمل مايصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه

وكان الي القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن حديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فانه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده قال الكندى فجرى الامر على ذلك

وكانوا يتولون الاحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الاحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك وانما كانت الاحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديوانا عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول انشاء ديوان الاوقاف بمصر

• كان اختيار القضاة يرجع غالباً الى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم

• ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم الى مد الايدى الى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن حجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتى دينار ومن القصص مئتى دينار ورزقه في بيت المال

مئتى دينار وكان عطاؤه مئتى دينار وكانت جائزته مئتى دينار فكان يأخذ ألف دينار فى السنة . ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض فى عهد مروان الثانى هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبى عطاء الى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الاربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند (٢) ديوان الخراج (٣) ديوان الرسائل فأما ديوان الجند فانه مذ وضع كان بالعربية لان عمر انما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل امارة وأعطياتهم وكل مايختص بهم نهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون تمهروا بعد فيه : فلما ولى الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلي الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت الى الامير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن

ذلك هو أحوج الى مني اليه لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان فى نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه فى امضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيي الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذى يليه فى عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ثم كتب بعده ابنه منصور ابن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل فى عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة الى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة الى الكتاب من الامم الأخرى

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أوهو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل الى الامراء والعمال فى الامارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم مايسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والامناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبرى في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيي قال الطبرى وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ماليس بالقافل — واعقب ما ليس بالزائل
فلهفى على الخلف النازل — ولهفي على السلف الراحل
أبكى على ذا وأبكي لذا — بكاء مولهة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع — وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة — لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي — ورد التقى عنن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها باعيانها غير انه زادفى بعضها الحمدلله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا اله الا الله وحده وفى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب فى خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقريزى فلما اجتمع الامر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزيادا بن أبيه الكوفة والبصرة قال ياأمير المؤمنين ان العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبا للاحسان الى الرعية فلو جعلت أنت عيارا دون ذلك العيار

ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل و كتب عليها فكانت تجرى مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ماضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبد الله ونقش على احد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس فى العطاء

فلما استوسق الامر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً الا حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف وكتب الى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذى ضرب به دنانير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مئة دينارين أى ان النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير

نسبت الدراهم اذذاك اليه وقيل لها الدراهم السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة الى الحجاج فسيرها الحجاج الى الآفاق لتضرب الدراهم بها وتقدم الى الامصار كلها أن يكتب اليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وان تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الاسلامية وتحمل اليه أولا فأولا وقدر في كل مئة درهم درهما عن ثمن الحطب وأجر ضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا اله الا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبد الملك الى ذلك انه نظر للامة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية العتق تبقى مع الدهر وقد جاء في الزكاة أن في كل مئتين أو في كل خمسة اواق خمسة دراهم وأشفق ان جعلتها كلها على مثال السود العظام مئتين عدداً أن يكون قد نقص من الزكاة وان عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على انها اذا بلغت مئتين عددا وجبت الزكاة فيها فان فيه حيفا وشططا على أرباب الاموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا اضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ماعزم عليه عهد الى درهم واف فوزنه فاذا هو ثمانية دوانيق والى درهم من الصغار فاذا هو اربعة دوانيق فجمعهما وكمل زيادة الاكبر على نقص الاصغر وجعلهما درهمين

متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فاذا هو لم يبرح فى آباد الدهر موفي محدودا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فانها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والامر على ما تقدم فلم يزل من بعده فى خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر الى ان استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعا للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار الى وزن سبعة وان يبطل السكك من كل بلد الا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران الى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الاخير من الخطط توضيحات نافعة فى أمر الدرهم والدينار فى الدول الاسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير فى الازمنة المختلفة : وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الاوقية والاوقية المصرية الرومانية التى يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨،٣٢ جراما فسدسها الذي هو المثقال ٤،٧٢ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا اذ أن وزنه ٤،٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤،٢٥٠

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة

ذات القرشين تقريبا لان وزنها ٥٠ و ٣ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٩٤ و٢ ج وبين ٧٠ و٢ ج وأن وزن الدينار كان يساوي فى الوزن نصف الجنيه الانكليزي لان وزنه ٢٥ و ٤ وقد كان وزن الدينار فى عهد عبد الملك يتراوح بين ٦٤ و٤ ج وبين ٢٥٢ و ٤

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقودا اسلامية لان هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الاموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس فى الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الاموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فان معاوية بن أبى سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الامر ورضي الناس عنه والقلوب منطوية على مافيها من كراهة ولايته كان فى الامة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والاولون ذوو اقدام بسالة والدد لا يقف فى أوجههم عما أرادوا شيء الا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك الا اذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التى تشايعه والتى سلت سيوفها لنصرته فاذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ماتهب تلك القلوب من مكانها فان صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى

وان صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضي عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه اليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحا ومن العداء تقربا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة الا انه نرى فيما زل زلة كبري قللت من قيمة عمله وهى اهتمامه بالغض من على بن أبي طالب على منابر الامصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتي جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضا وربما عارد الجرىء منهم على الامير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك اسراف في العقوبة يزيد الامر شرا كما حصل من زياد في أمر حجر الكندى

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الاموى كانوا فى حاجة لتأييد سلطانهم الى ما لا يحتاج اليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيرا فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا فى القضاء عليهم وهي

(أولا) ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيرا في انشقاق البيت الاموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فانه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده الى ابنه الوليد وعزل أخيه عبد العزيز لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة : ولكنه وهو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان . خطر ببال الوليد أن

يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الامر الى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ولم يكن عمر يميل الى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل أنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج فى ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة فى الدولة الاموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأي فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد فى الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول فى اشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فان البيت انشق وتجزأت القوي التى كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الانفاس وجعلتهم أثراً بعد عين

(ثانياً) احياء العصبية الجاهلية التى جاء الاسلام معفياً لاثرها ومشدداً فى النعى عليها لانه رأي أن حياة الامة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم فى جاهليتهم

وقد نبض عرقها فى أول الدولة المروانية فان وقعة مرج راهط التى تلاها قيام مروان بالامر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهباً | يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالاً غلبا | وطيئاً تأباه الا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكبا | ومن تنوخ مشمخراً صعبا

لا يأخذون الملك الا غصبا   وان دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن أبى عبيد الثقفى كاد يستأصل فان عمر بن الحباب السلمى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يالثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام : في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن فى الشام كان ما هو أشد منه فى خراسان فان مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبى صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت فى المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لى عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم الي مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا الى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير الى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار اليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم الى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لانهم من مضر فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة اليمن وربيعة وقيس

عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الاخيران مضر

كانت الامراء تساعد على انماء هذه الروح الخبيثة فاذا ولى يمان رفع رءوس أهل اليمن واستعملهم عمالا على الامصار فاذا تلاه مضرى عكس الامر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن الا اذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فاذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الاموي الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فان أبا مسلم الخراسانى أنكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم . ولا ننسي ان لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يدا كبرى فى انماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الاخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك لا شيء أضر على الامم من أن تنقسم طوائف تنتمي الى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فاذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فان الكلمة تحق على الامة ويقرب منها الفناء فان الجهل يجعل روح العصبية موجهة الى معاكسة المخالفين فتكون الامة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها . لم ينتج من انماء العصبية الجاهلية فى قلب الامة العربية ذهاب البيت الاموى وحده بل كان من ذلك ضعف لامة العربية نفسها وتغلب الاعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان فى عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله ان شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى امر قوادهم وذوى الاثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الاول

والثاني فان سليمان بن عبد الملك لما ولي بعد ان كان الوليد يريد اخراجه من ولاية العهد عمد الى كل من كان هواه مع الوليد فاذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما الا أنهما من صنائع الحجاج الذي كان هواه مع الوليد ولا يميل الى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لانه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وخلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بني أمية والامة الاسلامية وكان بعد من هذا شيء كثير فقسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ومن يؤازرهم

الامة التي ينتقم خلفها من عمال السلف لانهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الاعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأي ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الامم سائرة الى الامام وهي في موقفها أو لها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة الا صادفتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر أو تساق الى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه — لما كان اكثر الذين دونوا في عهد بني أمية قد عاشوا في الدولة العباسية استحسنا ان نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

صفحة

﴿ فهرست الجزء الثاني ﴾

صفحة

صفحة

﴿ تمت ﴾